مؤسسة عبد الله كنون الحسني
للثقافة والبحث العلمي

التعاشيب



تأليف

العلامة الأديب

عبد الله كنون الحسني



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

الكتاب : التعاشيب

Title : AT-TA'ĀŠĪB

التصنيف : أدب

Classification: Literature

المؤلف : العلامة الأديب عبد الله كنون الحسني

Author : Abdallah Guennoun Al-Hassani

الناشر : دار الكتـــب العلميـــة - بيـــروت

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	192	عدد الصفحات
Size	13.75 x 19.5 cm	قياس الصفحات
Year	2015 A.D - 1436 H.	سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		بلد الطباعة : لبنـــان

الطبعة : الأولى عن دار الكتب العلمية

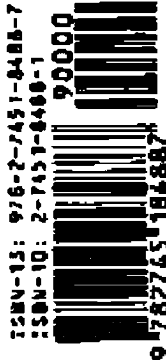
Edition : 1st from Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Est. by Mohamad Ali Baydoun

1971 Beirut - Lebanon





تأليف

العلامة الأديب

عبد الله كنون الحسني



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

ما أصدق نظر أولائك الذين يسمون كتبهم الأدبية بالحدائق والرياض والأزهار والورود، فما أرى هذا الأدب إلا روضاً مجوداً قد تفتحت أزهاره وترنحت أغصانه، ولطف جوه، وطابت تربته، فاشترك في تأليف منظره الجميل الأرض والسماء، والشمس والأثير، فضلاً عن الرياحين والأعشاب.

وأنت إذا رجعت بصرك بين أطراف هذا الروض أو ذاك، رأيت كل عنصر فيه أو قل كل جزء منه متمماً لمعنى من معانيه فليس هو بالورد الرفيع والياسمين البديع فقط، ولكنه بهما وباللبلاب والكمأة مثلاً من النباتات الطفيلية والتعاشيب.

كذلك روض الأدب في فنونه ومحتوياته يشتمل على الآثار العالية والنماذج المثالية ويضم إلى ذلك أيضاً منتجات وأغراضاً هي وإن كادت تكون ألصق بالأرض فإنها تظهر سمو المعاني الأولى وتساهم بحظها في تنسيق منظر الروض الحسان.

وأنا إذ دعوت هذا الكتاب بالتعاشيب فقد بينت نسبته من كتب الأدب، ولا أعني بذلك التواضع فما كنت ممن يدع حقيقة ما عنده لظن الناس، لو وجد من الناس من يظن بما فيه من الأدب ظناً جميلاً.

وأعود إلى الأدب فأتساءل ما يعني هذا اللفظ؟...

وفي الجواب لا حاجة بي إلى التعريج على مذاهب الأقدمين في تعريف هذا العلم وما كان يراد به عند قوم من مجموع علوم عشرة، فإنه لم يبق مجال لقبول تلك الأنظار المختلفة وقد توسع في مدلول لفظ الأدب بما لم يخطر في بال أصحاب تلك الأقوال ولعل خير ما يمكن أن يعرف به الأدب اليوم هو أنه كل معنى جميل في عبارة جميلة. فيأخذ الأدب من الدين والعلم والفلسفة والفن؛ لأن كلاً من ذلك يشتمل على معاني جميلة في عبارات جميلة.

وأي إنسان رزق ذوقاً مهذباً ونفساً مطبوعة على إدراك الجمال سواء في المعاني والألفاظ أو في الذوات والصفات، يسمع حديث أم زرع وما فيه من فنون البيان وضروب الكناية وما يعبر عنه من العواطف والميول ويشرحه من الحوادث والأغراض ثم يصل فيه إلى قول النبي ﷺ لعائشة: "**كنت لك كأبي زرع لأم زرع غير أني لا أطلقك**" فلا يملك عليه حسه ويؤخذ بما فيه من معان جميلة وتصويرات بديعة، ولا سيما كلمته الأخيرة التي هي مسك الختام وقد عبرت عن عاطفة الحب النبوي الشريف للسيدة عائشة بمنتهى

رقة وغاية التودد حتى إن الإعجاب بكلمة (غير أني لا أطلقك) لا يكاد ينتهي!..

فهذا من أجمل الأدب الواقع في نصوص الدين.

وتأمل قوله عليه السلام: "**حبب إلي من دنياكم: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة**" تجد أنه يزري بأحسن قصائد الشعر الموضوعة في الغزل والنسيب. فهو يعبر عن عاطفة الحب الشريف للنساء أصدق تعبير من دون مواربة ولا تختل، وذلك شأن النفوس المصقولة ولا كنفسه عليه السلام ثم هو يقرن النساء بالطيب. ولو بحثت عن لفظ جامع جميل يمكن أن تعبر به عن النساء وجمالهن وحسن حديثهن تعبيراً معنوياً لما وجدت أحسن من لفظة الطيب. فذكرها مع النساء فضلاً عن أنه مقصود لذاته، خلع على المعنى جمالاً لا يوصف وأكسب الجملة حيوية عظيمة حتى ليخيل للإنسان أنه يرى جمال النساء ويشم رائحة الطيب.

وهذا الأسلوب هو المسمى عند أهل البلاغة بمراعاة النظير وقد مثلوا له بأمثلة عديدة ولكنها كلها تقصر عن هذا المثال.

ثم سما الحديث إلى أعلى سموات البلاغة تمثيلاً لنفس المتكلم - التي لا تنظر إلى عالم الأرض إلا وهي متوطنة في عالم السماء فقال: "**وجعلت قرة عيني في الصلاة**" فيالله ما أجمل هذه الثلاث: النساء، الطيب، الصلاة.

هذا، والله، من أسمى الأدب الواقع في نصوص الدين.

وكم يعجبني قول موقظ الشرق الإسلامي السيد جمال الدين الأفغاني رحمه الله: "الحيوان شجرة قطعت رجلها من الأرض فهي تمشي، والشجرة حيوان ساخت رجلاه في الأرض فهو قائم في مكانه يأكل ويشرب وإن كان لا ينام ولا يغفل".

فهذا أدب في العلم.

ولما سئل مالك الإمام عن القدرية أكفارهم؟ فقال: من الكفر فروا، كانت هذه الكلمة تعبيراً جميلاً عن معنى فلسفي جميل، تناقلها الناس كما يتناقلون إحدى الفقر الأدبية المتخيرة.

والقارئ يعرف قطعاً رسالة حي بن يقظان للفيلسوف ابن الطفيل، ويعرف ما عرض فيها من الآراء والأفكار بطريق القصة الأدبية الممتعة، ويعرف أنها نالت شهرة عظيمة في الشرق والغرب. وما ذلك إلا لأنها فلسفة تمثلت أدباً فاستساغتها النفوس كما يستسيغ الظمآن الماء.

أما الفن، فإنه بلفظه ومعناه يقع من الأدب في الصميم.

والواقع أنه ليس لبحر الأدب ساحل ينتهي إليه، ففي أحاديث الضمير وهو أجس النفس من الآثار الأدبية القيمة ما لم يستطع بلغاء الكتاب ولا فحول الشعراء أن يعبروا عنه وقد تقطعت أعناق الكثير منهم عن بلوغ مداه. كما أن في مساقط الكلام والأحاديث اليومية من الأدب شيئاً كثيراً ولكن قلماً تنتبه إليه الناس:

حضرت مجلساً علمياً للأستاذ الجليل السيد المدني بن الحسني عقده بعد العصر فانتهى فيه إلى المغرب، فلما سمع الأذان ختم المجلس وأنشد:

ولو نعطي الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع (الأذان)

فقلت يا له من عالم أديب!

وكان أستاذنا المرحوم القاضي عبد السلام غازي لا يوقف درساً من الدروس ولا سيما عند العطلة في باب من الأبواب، وإذا انتهى في باب ما يقرأ منه يسيراً ويقول: "لا تقف على الأبواب" وذلك من حسن أدبه.

وأنشدت مرة هذا المقطع من موشح الصفى الحلي:

يا ذا الذي ظن أن يصيبا بسهمه وهو لا يصاب

أبعدت عن نفسك القريبا أخطأت في موضع الصواب

إن قلت قولاً فكن لبيبا فكل قول له جواب

ولكني انتقلت من صدر البيت الثاني إلى عجز الثالث غلطاً فقال لي أخي السيد عبد الحفيظ: أخطأت في موضع الصواب، فكان تنقيناً منه وتنكيتاً. وهذا من لطائف الأدب. وكم له من نظير.

وبعد، فالأدب وإن قلنا إنه كل معنى جميل في عبارة جميلة، قد يتسع مدلوله فيشمل العبارة والإشارة، والمعنى المنطوق والمفهوم، وقد يشمل الأحوال والصفات. ولكن الكلام في ذلك يطول، فحسبنا ما ذكرناه في التعريف وما يتلو في التطبيق.

أحمد زكي باشا[1]

مات شيخ العروبة! وكان سراجاً ينير سبيل القصد للباحثين، فيمضون قدماً لطياتهم لا يتوقفون ولا يتعثرون.

مات شيخ العروبة! وكان سيفاً مصلتاً فوق رؤوس المغرضين يتهددهم بقطع البلاعيم، وطعن الحيازيم، لا يأتون ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم.

مات شيخ العروبة! وكان صوتاً جهورياً لا ينفك صداه يرن في الآذان، متغنياً بمجد العرب، ولغة العرب، وأدب العرب.

فقد انطفأ السراج! وأغمد السيف! وسكت الصوت!

كان المرحوم أحمد زكي باشا يدعى شيخ العروبة، وبحق قد أعطي هذا اللقب فهو العالم الثقة في المباحث العربية تاريخية كانت أو اجتماعية أو أدبية. ومن نحو ربع قرن فأكثر وهو المرجع الأول والآخر في مصر والبلاد العربية الأخرى، في ضبط أسماء، وتراجم رجال، وتخطيط بلدان، وتوصيف عادات مما طمس أو كاد من مآثر العرب في المشرق والمغرب. فإذا عرض لموضوع مما هو من ذلك بسبيل لا

---

[1] كتبت للجنة تأبينه بمصر.

يزال يستقصي نواحيه، ويضم أطرافه بعضها لبعض حتى يقتله بحثاً وتحقيقاً ويخرجه للناس مصفى مهذباً لا يضره أنه غير قديم العهد، أو غريب الوطن كما عهد أن يقال في موضوعات المعاصرين.

جدير لها حسن الثناء لو أنها قديمة عهد أو غريبة أوطان

أما إذا تقول متقول على العرب وتاريخهم فإنه حينئذ يثور ثوران (فيزوف) يقذف بالكلم حمماً كحممه، فيها نار ملتهبة، وفيها هدم وتخريب. فلا كلام معوجاً يستقيم بعد طعنه فيه، ولا بحثاً متهافتاً يستقل مع نقده له. لأنه كما لا يعجزه أن يعضد أقواله بالبرهان والحجة، كذلك لا يعجزه أن ينقض أقوال خصومه بالبرهان والحجة. بل أنه ليدلي في غريبة المسائل بعشرات الدلائل حتى ليظن أنه يغترف من البحر أو يستملي الدهر!

هذا إلى الروح القومية التي تتجلى في أبحاثه عموماً، وردوده خصوصاً، فهو يكتب بغبطة تامة إذا كان يعلن مفخرة خفية من مفاخر العرب، وإذا كتب رداً ما فإنك تجد كلماته تكاد تلتهب غيرة مستمدة من نفسه الهائجة التي لا يقرّ لها قرار، إلا بعد تحقيق الانتصار.

وهذه ظاهرة فقدناها - مع الأسف الشديد - في بحوث كتابنا الجدد الذين تجدهم يظاهرون الطاعنين في آدابنا وأخلاقنا بل وفي تقاليدنا ومقدساتنا. وإذا ما تفضلوا في الفينة النادرة بتصحيح خطأ من أخطاء أولائك المغرضين تجدهم يتحفظون في ذلك غاية التحفظ ويحترسون كل الاحتراس لئلا يتوهم أحد أنهم متعصبون

رجعيون في حين لو قدر لذلك البحث كاتب أجنبي تريه لما ستنكف من الإعلان بملء فيه، بما هو الحق فيه.

وهل ينكر أحد أنه إلى الآن زال كتابنا المشهورون ونقدتنا لمعروفون لم ينتصروا للإسلام ورسالة صاحب الدعوة عليه السلام بما انتصر به كارليل أودوكاستري مثلاً؟

ومن دون ردود العلامة أحمد زكي باشا القوية، نجد له مراجعات لطيفة الغرض منها طبعاً الإشادة بمجد العرب وسبقهم لغايات الفخار في ميدان العلم والعمل. وإن ننس لا ننس بحثه لممتع في فتح العرب لأمريكا قبل كلمبوس، ورسالته الفريدة التي بعث بها لجريدة الأخبار الفرنسية لما نشرت عن بوانكريه رئيس لجمهورية الفرنسية أنه زار العاصمة الإنجليزية فاستقبله عشرون وفداً من جماعات الإنجليز وخطبوا مرحبين به فأجاب كلاً منهم بعبارة من الشكر تخالف ما أجاب به الآخر. واستدلت الجريدة بذلك على تضلع بوانكريه لفي لغة بلاده وبالتالي على سعة هذه للغة - فذكر لها في تلك الرسالة ما ثبت عن ذي الوزارتين ابن زيدون من أنه قام على جنازة بعض حرمه والناس يعزونه على ختلاف طبقاتهم فما سمع يجيب أحداً بما أجاب به غيره، والمفروض أن أقل ما كان في تلك الجنازة ألف رئيس ممن يتعين عليه أن يشكرهم فيحتاج إلى ألف عبارة مضمونها الشكر. وهذا شيء كثير للغاية لا سيما من محزون مثله.

كما ذكر لها أن الحريري في آخر كل مقاماته وهي خمسون، كلما أشار إلى تفرق الحرث بن هشام وأبي زيد السروجي عبر عن ذلك بعبارة تغاير سابقتها. وأن الخطيب ابن نباته أملى مجلدة معناها من أولها إلى آخرها: أيها الناس اتقوا الله واحذروه فإنكم إليه ترجعون.

وإن الصلاح الصفدي في كتابه أعيان العصر وأعوان النصر وهو اثنا عشر مجلداً كلما ذكر وفاة أحد المترجمين فيه استعمل عبارة تخالف العبارة التي استعملها في الكلام على وفاة غيره.

وقد نشرت هذه الرسالة بالجريدة المذكورة في اليوم الثاني فدع موضع العبرة فيها وهو المقارنة بين بلاغة أي واحد من هؤلاء الأدباء العرب وبلاغة الوزير الفرنسي، وبين ثروة اللغة العربية وثروة اللغة الفرنسية وقل لي بربك أي استخصار هذا وأية همة هذه؟....

ولا تظن هذا وأشباهه من شيخ العروبة إفراطاً في العصبية القومية وإيغالاً في المحافظة التي هي ضرب من الجمود. فحاشا وكلا! لقد كان شيخ العروبة من أعظم العاملين على تجديد شباب هذه الأمة، ومن أقوى الدعاة إلى النهوض الحقيقي بالعلم والعمل ومجاراة الأحياء في طرق معايشهم وأساليب معاملاتهم. وحسبك أن ترجع إلى كتابيه السفر إلى المؤتمر والدنيا في باريز لترى كيف أن كل جملة من هذه الرسائل هي بمثابة ضرب مثل على ما وصل إليه الغربيون من التقدم العلمي والصناعي وفي ضمنها دعوة حارة

إلى تأثر خطاهم في هذا السبيل إشفاقاً على المسلمين من بقائهم متردين في هوة الجهل العميقة، مما كاد أن يفضي إلى محو اسمهم من صحيفة الوجود.

وعلى النقيض من رحلات غالب كتاب العصر، لا تجد في رحلتي شيخ العروبة شيئاً من هذه النذالات الخلقية والصور الخلاعية، أو تلك النظرات المشككة والأقوال المريبة: فهذا لا يرى في أوروبا إلا بؤرة فساد وماخور سفاد فهو يتحدث عن عشاياه المخضلة ولياليه الساهرة بين الأحضان والأغصان والحور والقصور.

وذلك يريد أن يتفلسف فيتعسف ويتعجرف ويزعم أنه لم ير إلا ذمماً خربة ونفوساً مريضة وأذواقاً فاسدة فهو يتنبأ بانهيار بناء الحضارة الغربية عما قريب وينصح بنبذها وعدم اصطناع شيء منها.

وفي هذا كما لا يخفى طمس للحقيقة ومكابرة غير محمودة فالغربيون على الإجمال متفوقون علينا حساً ومعنًى مادةً وأدباً. ونحن بحاجة إلى النقل عنهم والاقتباس منهم لا في خصوص الصنائع والفنون والآلات وما إلى ذلك حتى في الأخلاق والعادات من البذل والتعاون والجد والتضحية والعمل في وقته واللهو في وقته وغير ذلك مما به استطاعوا أن يشيدوا للحضارة هذا الصرح الممرد الذي يحمل العالم بأسره على الإعجاب بعبقريتهم النادرة.

والكاتب الذي يعمى عن هذه الحقيقة أو يحاول سترها لا شك أنه إما أن يكون سيء النية أو مختل التصور. فالمنتظر من كتابنا

أنهـم لا يقفـون هذا الموقـف الشائـن فيتجـردون مـن الأغـراض ويقـدرون الأشيـاء بمقاديـرها الحقيقية حتـى يمكـن أن يستفيـدوا ويفيدوا وينتفعوا وينفعوا.

وقد كان هذا موقف شيخ العروبة الذي لم يحد عنه على أن توفاه الله فمضى محمود السعي جميل الذكر.

الشعر الوطني في الأندلس[1]

كثر الشعر الوطني عند العرب في العصر الحديث كثرة عظيمة حتى طغى على غيره من الأغراض الشعرية، فأصبح لا يكاثره غرض آخر منها. وما ذاك إلا لأن البلاد العربية كلها قد مزق الاستعمار الأجنبي شملها، فأصبح أهلها خاضعين للنير الأجنبي يتشوقون ليوم الحرية تشوق الظمآن للماء البارد، فهم تارة يتغنون بالنصر الباهر الذي يكسبونه في موقعة ذلك اليوم، وتارة يستعرضون مواقف المجد والبطولة في تاريخهم الأدبي والحربي، فيثيرون بذلك شعور مواطنيهم للسعي إلى تقريب أمد ذلك اليوم الذي تشرق شمس الحرية فيه على ربوعهم فيعود إليها ما فقدته من العزة والعظمة، وتارة ينعون على قومهم تخاذلهم وقعودهم عن حرب العدو المغير على أوطانهم، لافتين أنظارهم إلى ما يسومهم من الخسف والعذاب، وما يبتزه من أموالهم وخيرات بلادهم.وأخيراً وعلى هذا المنوال تكوّن الشعر الوطني في العربية وأصبح في المقام الأول من

---

(1) نشرت بمجلة الرسالة في العدد 105.

أغراضها الشعرية. فخلّف بذلك المديح الذي كان يحتل هذا المقام من قبل.

ونحن إذا رجعنا إلى ما قبل العصر الحديث من العصور المختلفة وقلبنا تطورات الشعر العربي في تلك العصور، لم نجد للشعر الوطني ذكراً ولا أثراً بين أقسام الشعر ولم نعثر على ما يفيد أن هذه الظاهرة التي غلبت على الشعر العربي اليوم أمكنها في عصر من العصور أو طور من الأطوار أن تظهر، بله أن تقلب على شعر شاعر من العرب، فتجرف غيرها من الظواهر وتكون هي المسيطرة على أكثرية أشعار الشعراء كما هو الحال اليوم.

ولذلك لما قال ابن الرومي أبياته المشهورة في هذا المعنى كانت عنقاء مغرب الشعر الوطني، فتداولتها الألسنة وأصبحت مثلاً يضرب في طبعية حب الناس لأوطانهم. وتلك الأبيات هي:

ولـي وطـن آليـت ألا أبيعـه وألا أرى غيري لـه الـدهر مالكـا

وحـب أوطـان الرجـال إلـيهم مـآرب قـضاها الـشباب هنالكـا

إذا ذكـروا أوطـانهم ذكـرتهم عهـود الـصبا فيهـا فحنـوا لـذلكا

ولا نعني بالشعر الوطني ما كان من قبيل العواطف المجردة عن المعاني المذكورة كهذا الذي يكثر قوله في بلاد الغربة تشوقاً إلى معاهد الأحباب ومواطن الشباب. فإن هذا قد زخرت به العربية قديماً وحديثاً ولم يخل عصر من أعصارها من لدن الجاهلية إلى الآن من قولته والمكثرين منه وما أشعار نجد والحجاز والعقيق

ورامة وغيرها إلا بعض من كل وقل من جل مما يتمثل فيه هذا اللون من الشعر العاطفي أحسن مثال. ولكن ما نعني هو الشعر الوطني بمعناه الشائع الذي يصطبغ بالفكرة السياسية التي ألمعنا إليها من قبل، وهذا هو الذي يصح القول فيه أنه وليد التجديد الأدبي في العصر الحديث وأنه لم يكن له وجود في العصور المتقدمة التي ازدهرت فيها الآداب العربية سواء في شبه الجزيرة نفسها: أو فيما اصطنع لغتها من البلدان بعد إشراق نور الإسلام فيها. اللهم إلا هذا القطر الأندلسي الذي عقمت الأيام أن تلد مثله في رقيه وحضارته، فإنه لا بد أن يستثنى من العموم.

ذلك أن عرب الأندلس الذين تقدموا الزمن بكثير في النضوج العلمي لم يجز أن يتخلفوا عنه في الإحياء الأدبي فطلعوا على العالم العربي بالتوشيح الذي لم يستطع التجديد العصري حتى الآن أن يأتي بما يشبهه من حيث التأثير البليغ في تحرير الشعر من قيود البحور والقافية الثقيلة.

وقد حاول المشارقة أن يأتوا بشيء في هذا الصدد فاستظهروا بالدوبيت، والكان ما كان، والقوما وغيرها. ولكنه كان شيئاً غريباً عن الذوق العربي غرابة هذه الكلمات في اللغة العربية. وكذلك قالوا الشعر الوطني وأكثروا منه وتفننوا فيه، فانفردوا به عن سائر الشعوب العربية وسبقوا إليه الأجيال الحديثة وكان إحدى مأثراتهم الجليلة في النهوض بالأدب العربي من وجه عام.

ولقد كان باعثهم عليه هو نفس ما بعث إخوانهم اليوم من تكالب دول النصرانية عليهم وإذلالها لهم في عقر بلادهم، ولذلك لم يوجد في عهد الفتح والعصر الأموي إذا أمر العرب في تلك الديار مقبل وشملهم جميع وإنما وجد بعد أن ضعف شأنهم ودالت دولتهم وصاروا يشهدون سقوط ممالكهم الواحدة بعد الأخرى وحصول بلادهم في قبضة العدو فلا ترجع إليهم أبداً وعرفوا الغاية التي إليها يسيرون، والمصير الذي منه يقتربون، فاشتد رعبهم وهلعت قلوبهم فبكوا وشكوا ونظموا الأشعار الوطنية في تحميس الناس للدفاع عن حقيقتهم والاستماتة في صون كيانهم معرضين بما يؤول إليه أمرهم هناك من الذل والاستكانة وطمس معالم الحضارة والدين.

ولقائل أن يقول إن مثل هذه الأحوال قد صار في بلاد المشرق ولا سيما في عهود الحروب الصليبية يوم سلبت من الأمبراطورية العربية أثمن درة في تاجها وهي بلاد الشام، ومع ذلك فلم تتفتق قرائح الشعراء هناك بالشعر الوطني ولم يظهر منهم من جال في ذلك الميدان، فما السبب في ذلك؟

ولعل للعجمة التي كانت قد بدأت تعقل اللسان العربي في ذلك العهد من جراء ظهور سلطان الإعجام في بلاد العرب وضعف الإنتاج الأدبي تبعاً لذلك، تأثيراً مباشراً في عدم ظهور هذا النوع من الشعر في بلاد الشرق وإن وجدت البواعث.

على أن هذه الأحوال وإن لم تبعث على قول الشعر الوطني فإنها كانت السبب في ظهور فن من فنون الأدب لا يقل خطراً عن الشعر مطلقاً وهو فن القصص فإن من المعلوم أن كثيراً من هذه القصص الحماسية كعنترة وسيف بن ذي يزن وغيرهما إنما وضعت في هذا العهد الصليبي، وفي مصر بالخصوص، لتضرب للناس أمثلة من الشجاعة العربية يخلق بهم أن يحتذوها في صد هجمات المغيرين من ذئاب الغرب على بلاد الإسلام. وهي وإن كانت عامية التأليف تدل على أن المشرق لم يقف واجماً بإزاء تلك الحوادث الكبرى وإن لم يهتد إلى الشعر الوطني كما اهتدت إليه الأندلس.

ونقفك الآن على نماذج من الشعر الوطني الأندلسي لترى أنه لا يكاد يتميز عن الشعر الوطني العصري في وصف من الأوصاف، ولا ننقل لك شيئاً من قصيدة صالح بن شريف الرندي في رثاء الأندلس وإنما نشير إليها فإنها شهيرة لا تخفى على تلامذة المدارس.

فانظر إلى هذه القطعة للأديب أبي عبد الله الفازازي يصف فيها الفوضى الضاربة أطنابها على بلاد الأندلس وتخاذل أهلها عن الدفاع عنها بل وإعانة الأعيان منهم على خرابها، ويستشف من ستر الغيب المآل الذي تؤول إليه إذا دامت على تلك الحال، فيسأل الله تعالى أن يلطف بعباده ويرحمهم:

الروم تضرب في البلاد وتغنم والجور يأخذ ما بقي والمغرم

والمـال يـورد كلـه قـشتالة   والجنـد يـسقط والرعيـة تـسلم
وذوو التعين ليس فيهم واحد   إلا معين في الفساد مسلم
أسفي على تلك البلاد وأهلها   الله يلطف بالجميع ويرحم

وانظر إلى هذه القطعة أيضاً لأبي المطرف بن عميرة يقف فيها موقف اليائس البائس يمتنع حتى عن الاستسقاء لبلاده ويتساءل في حزن وحنق كيف يمكن أن يدوم وداده لهذه الديار التي ألقت بطاعتها للأغيار:

زدنا على النائين عن أوطانهم   وإن اشتركنا في الصبابة والجوى
إنا وجدناهم قد استسقوا لها   من بعد ما شطت بهم عنها النوى
ويصدنا عن ذاك في أوطاننا   مع حبها الشرك الذي فيها ثوى
حسناء طاعتها استقامت بعدنا   لعدونا، أيستقيم لها الهوى؟

وله أيضاً يشير إلى انتقاله من بلد إلى بلد لاستيلاء العدو على البلاد واحدة فواحدة، من قصيدة طويلة.

كفى حزناً أنه كاهل محصب   بكل طريق قد نفرنا و"ننفر"

وانظر إلى كلمة وننفر ما أدقها في التعبير وأشقها على النفس! واستمع إلى هذين البيتين اللذين قيلا في أهل بلنسية وما أكثر انطباقهما علينا اليوم.

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم   حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها   لو لم يكن (ببطرنة) ما كانا

ولابن الأبار من قصيدة طويلة يخاطب بها السلطان أبا زكرياء الحفصي صاحب إفريقية.

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

يا للجزيرة أضحى عزها جزراً ... للحادثات وأمسى جدها تعسا

في كل شارقة إلمام بارقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا

يا للمساجد عادت للعدا بيعا ... وللنداء غدا أثناءها جرسا

لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارساً للمثاني أصبحت درسا

وقصائد الاستنجاد بملوك العدوة كثيرة، يستدعي إيرادها أو الإشارة إليها طولاً. ولكن لا بأس بإيراد شيء من قصيدة في هذا المعنى لإبراهيم بن سهل الإسرائيلي وهي كافية للدلالة على قوة العاطفة الوطنية عند أهل الأندلس، لأن هذا الجنس من الناس ملموز بضعف هذه العاطفة، فصدور هذه القصيدة عن فرد منه دليل على ما قلنا قال يخاطب أهل العدوة.

ورداً فمحمود نجاح المصدر ... هي عزة الدنيا وفوز المحشر

يا معشر العرب الذين توارثوا ... شيم الحمية كابراً عن أكبر

إن الإله قد اشترى أرواحكم ... بيعوا ويهنيكم وفاء المشتري

أنتم أحق بنصر دين نبيكم ... وبكم تمهد في قديم الأعصر

أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا ... ذاك البناء بكل لدن أسمر

لكم عزائم لو ركبتم بعضها أغنتكم عن كل طرف مضمر
الكفر ممتد المطامع والهوى متمسك بذناب عيش أغبر
والخيل تضجر في المرابط غيرة ألا تجوس حريم رهط الأصفر
كم نكروا من معلم، كم دمروا من معشر، كم غيروا من مشعر!
كم أبطلوا سنن النبي وعطلوا من حلية التوحيد صهوة منبر!
أين الحفائظ ما لها لم تنبعث؟ أين العزائم ما لها لا تبري؟
أيهزمنكم فارس في كفه سيفاً، ودين محمد لم ينصر؟

ونختم هذه الكلمة بتنبيه قومنا إلى تاريخ هذه الفاجعة العظيمة، فإن فيها عبرة لمن يعتبر.

المتنبي في ديوانه[1]

تنبؤه، عقيدته، أخلاقه

اختلفت مذاهب الأدباء في المتنبي بين المدح والقدح اختلافاً شديداً منذ العصر الذ كان يحيا فيه إلى الآن، وقد مر على وفاته عشرة قرون كاملة.

وإنك لتجد اليوم بعد هذه الأجيال الطويلة من يتكلم عن المتنبئ بلسان الصاحب بن عباد خصمه العنيد الذي جعل وكده النيل من المتنبي وإنكار فضائله بالحق والباطل، ومن يدافع عنه ويتعصب له أكثر من ابن جني وأبي العلاء.

ولقد كان حرياً أن تضيع حقيقة المتنبي بين التفريط والإفراط من الفريقين كما هو الشأن من كل ما يتعاوره هذان العاملان المختلفان، ولكن المتنبي كان شخصية فذة تأبى إلا الإعلان عن نفسها والظهور بمظهرها الحقيقي مهما حالت الحوائل بينها وبين الناس.

---

(1) كتبت للجنة الاحتفال بذكراه الألفية في فاس ونشرت بمجلة الرسالة في عددي 129 و130.

فالمتنبي لا يجهل أحد من المثقفين اليوم أنه من أكبر شعراء العربية إن لم يكن أكبرهم على الإطلاق. رفع من شأن الشعر العربي فأحله رتبة لم تكن له من قبل بما نفي عنه من الزخارف اللفظية والأساليب التقليدية والأغراض السافلة، وما نفخ فيه من روح العظمة والابتكار والسمو إلى الغايات البعيدة المنال. حتى إنه إذا مدح شخصاً فإن مدحه له يكون كالتلقين لمبدإ سام لا يجد الإنسان مندوحة عن الاستجابة له من أعماق نفسه. ولا نستدل على ذلك بأكثر من مطلع هذه القصيدة التي يمدح بها سيف الدولة فإن فيه وحده بلاغاً لمن يتشكك في هذا القدر، وهو قوله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم

وكما يعرف الجمهور هذه الحقيقة من أمر المتنبي اليوم. فإنه كان يعرفها بالأمس وفي عصر المتنبي نفسه، يدلنا على ذلك هذه العناية الكبيرة من الأدباء بشعره، فمن شرح له، إلى انتقاد، إلى تقريظ، إلي موازنة، إلى غير ذلك مما لم ينله شاعر قبله ولا بعده، وفي حياة المتنبي قال ابن العميد لأحد خلصائه: "إنه والله ليغيظني أمر هذا المتنبي، واجتهادي في إخماد ذكره، فقد ورد علي نيف وستون كتاباً في التعزية ما منها إلا وقد صدر بقوله":

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر   فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً   شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

ولاحظ الأستاذ العقاد[1] أنَّ المدة بين نظم القصيدة التي منها هذان البيتان وموت أخت ابن العميد التي كانت التعزية فيها أنها لا تزيد كثيراً على سنة واحدة.

فانظر كيف كان تلقف الأدباء لآثار المتنبي وتلقيهم لها بالقبول، برغم وجود كثير من المنافسين له والعاملين على إخماد ذكره كما يعبر الرئيس ابن العميد.

فمقام المتنبي دائماً أرفع من أن يتطاول إليه أحد، وشأنه أكبر من أن يؤثر فيه مقال أهل الحسد، وما كثرت هذه التتبعات لشعره فكثرت بسببها العثرات التي يأخذها عليه خصومه، إلا لأن نبوغه كان أكمل وأتم، وعبقريته أجل وأعظم، والناس منذ كانوا مولعون بالعظماء يتلسمون عيوبهم فيظهرونها ويتكشفون عوراتهم فلا يسترونها. على أن جل ما أخذ على المتنبي قد رده المحققون وبينوا أن الصواب ما ذهب إليه هو، وبعضه الباقي هو مما لم ينج منه كاتب ولا شاعر في القديم والحديث، وأي صارم لا ينبو؟ وأين الجواد الذي لا يكبو؟

نعم هناك هنات لا تزال لاصقة بالمتنبي فتزري بشخصه الكبير، ولا زال البحث العلمي بعيداً عن أن يصل فيها إلى نتيجة حاسمة.

---

(1) المطالعات من 131.

فنريد أن نلقي عليها بصيصاً من نور التحقيق معتمدين في الكثير على شعر المتنبي الذي هو أصقل مرآة لتمثيل نفسيته وأخلاقه.

وسيكون اعتمادنا في الأكثر على نسخة خطية عتيقة من ديوانه توجد بالخزانة الكنونية. وهذه الهنات التي نقصد إلى الكلام فيها هي تنبؤه وعقيدته وأخلاقه.

فأما تنبؤه فهو الزلة الكبرى التي تؤخذ على ذلك العقل الجبار، وهو في الحقيقة أمر لو صح لكان ذريعة إلى اتهامه في سلامة الإدراك. ولكن من المعروف أن المعري كان يشك في صحة ذلك، ويقول في هذا اللقب الذي غلب على أبي الطيب أن اشتقاقه من النبوة أي الارتفاع، لما كان من ترفعه على الخلق، لا من النبأ الذي منه اشتقاق النبئ.

وهذا الخبر وحده كاف في نفي هذه التهمة عنه، لا لتشكك المعري فيها، ولكن لما يتضمنه من خفاء قضية التنبؤ وعدم شهرتها بين الخاصة بله العامة. وإلا لما سأل ابن القارح أبا العلاء عن حقيقتها فأجابه أبو العلاء بهذا الجواب.

وهذا على أن ما بين المتنبي وأبي العلاء من الزمن لا يجاوز العقد الواحد من السنين. فكيف خفي هذا الأمر ودفن مع المتنبي حتى أن اثنين من كبار أدباء ذلك العصر لا يجدان سبيلاً إلى التوثق منه. مع أن العادة في مثله إذا وقع ولو ممن هو أدنى من المتنبي مقاماً، أن يشتهر ويتعالم فيتناقله الناس ولا يبقى أحد ليس عنده نبأ منه.

وأكثر من خبر المعري دلالة على هذا المعنى، خبر ابن جني الذي ذكره أبو القاسم الشريف (الشريف الغرناطي) في شرح مقصورة حازم قال:

"وحكى أبو الفتح بن جني قال: سمعت أبا الطيب المتنبي يقول: إنما لقبت بالمتنبي لقولي:

أنا ترب الندا ورب القوافي وسمام العدا وغيظ الحسود

أنا في أمة تداركها اللـ ـــه غريب كصالح في ثمود"

فهو لو كان تنبأ حقيقة لما جهل ذلك من أمره حتى يحتاج إلى البيان وإلا لكان كالمعتذر بأقبح من الزلة.

وصفوة القول أن قضية تنبؤه لم تثبت حتى في زمن حياته، وهي إن لم تكن من إشاعات خصومه الكاذبة فهي على الأصح مما نبز به لتشبيهه نفسه بالأنبياء كما في البيتين السابقين والبيت الآخر الذي يقول فيه:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وننظر في ديوانه فلا نجد ما يدل على هذه القضية لا تصريحاً ولا تلويحاً إلا ما كان من أمر سجنه في صباه بسبب وشاية بعض الناس به إلى الوالي. فنقول ما هي هذه الوشاية أتراها مما له علاقة بهذا الأمر؟

وتجيب نسختنا عن ذلك بما كتب فيها على القصيدة التي مدح بها الوالي فتقول:

"وكان قوم في صباه وشوا به إلى السلطان وتكذبوا عليه وقالوا له قد انقاد إليه خلق من العرب. وقد عزم على أخذ بلدك، حتى أوحشوه منه، فاعتقله وضيّق عليه فقال يمدحه" فالوشاية إذن هي خروجه على السلطان لا ادعاء النبوة.

واستمع إلى ما يقوله في استعطاف الوالي من تلك القصيدة:

أمالك رقي ومن شأنه — هبات اللجين وعتق العبيد

دعوتك عند انقطاع الرجاء — والموت مني كحبل الوريد

دعوتك لما براني البلى — وأوهن رجلي ثقل الحديد

وقد كان مشيهما في النعال — فقد صار مشيهما في القيود

وكنت من الناس في محفل — فها أنا في محفل من قرود

يريد المسجونين من اللصوص والجناة المختلفي الطبقات الشتى الشكول.

تعجل في وجوب الحدود — وحدي قبل وجود السجود

يريد أنه صغير لم تجب عليه الصلاة فكيف يجب عليه الحد؟

وقيل عدوت على العالمين — بين ولادي وبين القعود

يريد أنهم اتهموه بالعدوان على العالمين في حالة الطفولة قبل أن يستطيع القعود وليلاحظ القارئ نوع التهمة فهي منحصرة في الخروج، ولو كانت ادعاء النبوة لما قال عدوت على العالمين.

فما لك تقبل زور الكلام — وقدر الشهادة قدر الشهود

يريد أن الشهود من سفلة الناس فشهادتهم مردودة لعدم تورعهم عن الكذب.

فلا تسمعن من الكاذبين ولا تعبأن بمحك اليهود
وكن فارقاً بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأو بعيد
وفي وجود كفك ما جدت لي بنفسي ولو كنت أشقى ثمود

فهذا كلامه في حال صباه قبل أن يناصبه العداء أحد من المنافسين له والحانقين عليه، لم يتضمن شيئاً من الإشارة إلى دعوى النبوءة، ولا يمكن أن تفهم منه بحال. فلو كان قال هذه القصيدة في إبان شهرته وانتشار ذكره لقلنا أنه جمجم فيها وداري عن نفسه، ولكنه كما علمت قالها في صباه وهي من أوائل شعره فهي مما يعتمد عليه ويستشهد به في هذا المحل. بل نحن نسلم جدلاً أنه ادّعى النبوة وبسببها سجن فكيف يصح قوله حينئذ:

وكن فارقاً بين دعوى أردت ودعوى فعلت شأو بعيد

وهل من يريد ادعاء النبوة متنبئ بالفعل؟ وهل هذه الإرادة مما يمكن الاطلاع عليه قبل إظهارها حتى تتأتى الوشاية به؟ وذلك بخلاف الخروج فإن بوادره تظهر للناس قبل الإقدام عليه، لأنه لا بد له من دعاوى كبيرة، إذ الفرد لا يمكن أن يرفع وحده علم الثورة في وجه الدولة.

ومع تأكيدنا أن الذين وشوا به لم يتهموه إلا بالخروج، لا نستبعد أنهم الذين لمزوه بذلك اللقب المشنوء لما رأوا تعاليه عليهم وتقريعه لهم مع تشبههم باليهود وتشبيه نفسه بالأنبياء كما في قوله:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وقوله:

فلا تسمعن من الكاذبين ولا تعبأن بمحك اليهود

بل إننا لا نكاد نميل عن هذا الرأي في سبب تلقيه بالمتنبي حتى تقوم الحجة، والحجة القاطعة على خلافه. وأما أقوال خصومه فبمجرد ادكار قوله أنه سمام العدا وغيظ الحسود تضعف وتضمحل حتى لا يبقى لها اعتبار ما.

وأما عقيدته فهي مما كثر كلام الناس فيه، ولسوء حظ المتنبي لم يتناولها إلا منتقد، وليس هناك معتقد[1] فيما نعلم تولي رد ما رمي به من الزيغ والإلحاد. فنحن نبين ما يعتمده متهموه في ذلك ونعقب عليه بما يلوح لنا منه صحيحاً أو باطلاً. غير أنه لا بد من القول أن مثل المتنبي في أدبه وشعره وروحه الفلسفية لا يطمع منه أن يكون متديناً خالصاً إلى حد التبتل والانقطاع للعبادة ومحاسبة نفسه على الخطرات وحبس لسانه عن فضول الكلام، فإن التدين بهذه الصفة مما لا يكاد يفهمه إخوانه من الشعراء وأهل الأدب على وجه العموم وقديماً مثلوا برقة إيمان الأدباء، فكيف نريد من المتنبي أن يشذ عن جمهورهم ويقدم لنا من نفسه "أويساً" في ثوب شاعر، أو شاعراً في ثوب "أويس"؟

---

(1) أي موال للمتنبي حسن الرأي فيه.

ولئن قال علي بن حمزة عن المتنبي أنه ما صلى ولا صام ولا قرأ القرآن، فلقد قال عنه أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط. وهذه إن لم تقم بتلك فإن تلك لا اعتداد بها مع هذه. وهل كان الشعراء الذين لم يتنزهوا عن الكذب والزنا واللواط، يصومون ويصلون ويقرؤون القرآن؟

فبهذا تعلم أن عدوان الخصومة على المتنبي قد ستر من محاسنه ما لو ظهر لكان له في النفوس مكان أسمى مما له فيها الآن.

ولأقص على سمعك بعد هذه المقدمة بعض الأبيات التي يزن بسببها بضعف العقيدة. قال يمدح بدر بن عمار:

تقاصر الأفهام عن إدراكه مثل الذي الأفلاك فيه والدنى

فقالوا لقد أفرط جداً لأنه شبه ممدوحه بالحق سبحانه وتعالى، لأن الذي فيه الأفلاك والدنى هو علمه عز وجل. ونقول أن هذا تعسف ظاهر، فمن الذي نقل عنه أنه يريد ما ذكرتم؟ وماذا حسن في بلاغتكم التعبير عن علم الله بالذي الأفلاك فيه والدنى حتى رجحتموه على أن يكون المراد به هذا الفضاء الواسع الذي يحتوي الأفلاك والدنى حقيقة ممتداً وراء الآفاق التي تتقاصر عن إدراكها العقول؟

وقال المتنبي:

أنا مبصر وأظن أني نائم من كان يحلم بالإله فاحلما؟

فقالوا هذه مبالغة مذمومة وإفراط وتجاوز حد، ثم هو غلط في إنكار رؤية الله تعالى في النوم فإن الأخبار قد تواترت بذلك. ونقول: إن للبيت رواية أخرى وهي الأشهر هكذا:

من كان يحلم ما يراه فاحلما؟

وهي كذلك في نسختنا، والمعنى عليها أظهر من الأولى فلا يبعد أن تكون تحريفاً.

وقال المتنبي:

يترشفن من فمي رشفات   هي في أحلى من التوحيد

فقالوا لو كان يجد للإيمان في قلبه حلاوة لما جعل رشفاتهن في فمه أحلى من التوحيد ونقول: إن البيت قد روي هكذا:

هي فيه حلاوة التوحيد

وهي نسختنا أيضاً، وقد قيل إن أفعل غير مراد به التفضيل، وقيل أيضاً أن التوحيد نوع من التمر. وعلى الرواية الثانية يكون شبه الترشف بحلاوة التوحيد ولا حرج في ذلك، ومثله مستساغ في مذهب الشعراء غير مستنكر منهم.

هذه ثلاثة أبيات ليس في شعر المتنبي أكثر غلواً منها. ومع ذلك فهي لا ترد علينا كما رأيت، ثم باقي ما يؤخذ عليه من هذه الناحية إما مذاهب عقلية يشير إليها حيث يقتضي المقام ذلك، وليس هناك ما يدل على أنها من ذات نفسه ومضمر قلبه أصلاً. وأما مبالغات في المدح يصل بها إلى حد المقارنة بين نفسه وممدوحيه وبين الأنبياء.

والأمر الأول لا شك أن لا مؤاخذة عليه به حتى على فرض كونه مما يؤثر في صحة الإيمان فمن أين لنا أنه كان يعتقده؟ وإلا فحاكي الكفر ليس بكافر، وعلى أنه اعتقده فمن أين لنا أنه استمر على اعتقاده إلى أن مات؟ وعلى كل حال فالحكم على المتنبي ضعف العقيدة لبعض أفكار فلسفية تضمنها شعره يجعلنا لا نقبل في حظيرة الإسلام أكثر علماء الإسلام من الذين لهم مذاهب عقلية وأفكار فلسفية. على أنه ما من قول موهم في شعر المتنبي إلا وقد وجد في شعر غيره ما هو أكثر إيهاماً منه، فلماذا لم تحكموا على غيره من الشعراء بذلك الحكم الجائر؟

ولولا ضيق المجال لعملنا مناظرة بين أقواله وأقوال غيره من الشعراء في هذا الباب حتى يرى القارئ أن المتنبي لا يزيد على غيره إن لم يقصر في ذلك.

ودونك مثلاً قوله في كافور:

الا فتى يورد الهندي هامته	كيما تزول شكوك الناس والتهم
فإنه حجة يؤذي القلوب بها	من دينه الدهر والتعطيل والعدم

فإنه هو عين قول ابن الرومي لصاحب لحية طويلة في صورة أخرى من السخرية.

ارع فيها الموسى فإنك منها	علم الله في أثام كبير
أيما كوسج يراها فيلقى	ربه بعدها صحيح الضمير
هو أحرى بأن يشك ويغرى	باتهام الحكيم في التقدير!

فلماذا أخذ قول المتنبي دليلاً على ميله للتعطيل دون قول ابن الرومي الذي منه استعار المتنبي ذلك المعنى؟

كذلك الأمر الثاني، لم يكن المتنبي بدعاً فيه ولا بأول ولا آخر، فما زال الشعراء يشبهون ممدوحيهم بالأنبياء بل يجاوزون التشبيه إلى ما هو فوقه. وذلك معروف من مذهبهم قديماً وحديثاً. ولا نعني أنه لا بأس به شرعاً، ولكنا نريد أن نقول إن المتنبي لم ينفرد به ولم يطعن أحد بمثله على غيره من الشعراء في العقيدة، وقد جاء ذلك في صدر الإسلام ووسطه ووجد الآن في هذا العصر فمن قول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

أتى الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

ومن قول أبي نواس في الأمين:

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب

ومن قول أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقي بك يذكر طائرات فرنسا:

لسليمان بساط "واحد" ولكم ألف بساط في الفضاء

فكل هؤلاء الشعراء يضربون مع المتنبي على وتر واحد في هذه النغمة. والخلاصة أن المتنبي كغيره من الشعراء صدرت عنه أقوال ظاهرها الاستخفاف بأمر الدين ولكن لا نحكم بمقتضاها أنه فاسد العقيدة حتى نحكم على غيره من الشعراء بله العلماء أنهم كذلك، فإن بعضهم أسوة بعض في هذا الأمر.

وأما الخلافة فلسنا بحاجة إلى التنويه بما كان عليه من علو الهمة والشجاعة والصدق والوفاء. فإن شعره مملوء بشواهد ذلك حتى لقد بلغ من علو الهمة أن عابه خصومه بهذا الخلق، فمنهم من لقبه بالمتنبي لتشبيهه نفسه بالأنبياء، ومنهم من جعل ذلك مرضاً نفسياً أشبه ما يكون بالجنون. والواقع أن المتنبي كان يسرف في التعظم، وإن كان له نظراء في ذلك، فانظر إلى قوله:

أي محـــل ارتقـــى ... أي عظـــيم اتقـــى

وكـــل مـــا قـــد خلـــق ... الله ومـــا لـــم يخلـــق

محتقـــر فـــي همتـــي ... كـــشعرة فـــي مفرقـــي

فإنك لا تجده يختلف عن قول هبة الله بن سناء الملك:

وفــرط احتقــاري للأنــام لأننــي ... أرى كل عار من حلى سؤددي سدى

أرى الخلق دوني إذ أراني فوقهم ... ذكــاء وعلمــاً واعــتلاء وســؤددا

وبلغ من شجاعته أن لاقى الموت المحقق فراراً من العار وبلغ من صدقه أن قال عنه علي بن حمزة أنه ما كذب قط، وقال هو:

ومن هوى الصدق في قولي وعادته ... رغبت عن شعر في الرأس مكذوب

وبلغ من وفائه أنه برغم ما عامله به سيف الدولة من سوء العشرة، لم يبرح ذاكراً له متشوقاً إليه. وقد كان يمدح كافوراً فيصدر بمدحه والتأسف على فراقه، ومن شدة وفائه أنه وفى للشيب فلم يقدر على مفارقته إلا حزيناً باكياً كما قال:

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

هذه أخلاق المتنبي ليس فيها مغمز لأحد، وقد وصف نفسه بها في شعره وجاءت سيرته دليلاً على صدقه في هذا الوصف، إلا أن الطاعنين عليه لم يعدموا ما يلمزون به أخلاقه أيضاً فقالوا: إنه كان بخيلاً، وبخيلاً جداً، واستدلوا على ذلك بحكايات ملفقة تشتم منها رائحة الوضع كما يقول المحدثون، وبأبيات من شعره إن لم نقل أنها محرفة عن موضعها فلا أقل من أن نقول إنها لا دلالة فيها على ما زعموه أصلاً. فأما تلك الحكايات فقد كفانا الأستاذ المازني أمرها إذ بين ما فيها من زور وما تحتويه من بهتان[1] وأما أبيات الشعر فإنا ناقلون مما هو نص من شعره في نفي هذه التهمة عنه ثم مقارنون بينه وبينها ليظهر خطأ الاستدلال بها واضحاً لا خفاء معه.

قال المتنبي يستنجز كافوراً ما وعده من الولاية:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله ... فإني أغني منذ حين وتشرب

إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية ... فجودك يكسوني وشغلك يسلب

وقال فيه أيضاً:

وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا ... ودون الذي أملت منك حجاب

فهذا المتنبي يقول إن بغيته في فضلة من الكأس التي يشرب بها كافور "يعني الولاية" لا المال. وإن كل ما وصل إليه من عطاء كافور

---

(1) حصاد الهشيم ص 222 وما بعدها.

لم يرفع الحجب بينه وبين ما آمله منه. ولا شك أن ذلك شيء غير المال. ومن كانت هذه منزلة المال عنده لا يحفل به ولا يجعله شيئاً مما أمله، فكيف يوصف بالبخل ويتهم بالحرص لو كان هناك إنصاف؟

وقد صرح بما أخذ ضمناً من هذه الأبيات في قوله:

وما رغبتي في عسجد أستفيده ... ولكنها في مفخر استجده

وقال في شكره لمن وهب له هيبة:

وما شكرت لأن المال فرحني ... سيان عندي إكثار وإقلال

لكن رأيت قبيحاً ان يجادلنا ... وإننا بقضاء الحق بخال

وفي مطلعها ما يشير إلى صدق قوله:

"فجودك يكسوني وشغلك يسلب"

وهو هذا:

لا خيل عندك تهديها ولا مال ... فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

ثم هل بقي من تقبيح البخل أكثر من جعله من مبطلات الطهارة كما قال:

فتى لا يرجى أن تتم طهارة ... لمن لم يطهر راحيته من البخل

فهذه الأبيات وسواها كثير مما هو نص في المراد، كيف يصح إغفالها والتمسك بمثل قوله دليلاً على بخله.

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

فهل هو إلا مقرر لحقيقة واقعية، وهي أن المجد مهما كان رفيعاً لا عتبار له إلا بالمال. وقد أجمع الناس على ذلك فما يحترمون إلا

صاحب المال ولو كان وضيعاً، ولكن ألا تراه مع ذلك عقب بأن المال وحده لا اعتبار له عند العقلاء - وعلى الأقل عنده هو - ولا بد معه من خصال المجد؟.. وأغرب من ذلك الاستشهاد على بخله بمثل قوله:

من يطلب المجد فليكن كعلي يهب الألف وهو يبتسم

وقوله:

تهلل قبل تسليمي عليه وألقى ماله قبل الوساد

وهذا لو صح دليلاً على بخل الشاعر لعددنا كل شعراء العربية بخيلاً فإنه لكثرة ما تدوول هذا المعنى، صار لا يخلو منه ديوان شاعر.

وإننا لا ننفي أن المتنبي كان جماعة للمال، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا للاستعانة به على مقاصده كما يصرح هو بذلك في شعره لا سيما وهو يعلم من أحوال عصره أن الاعتبار كله إنما هو بالمال خاصة. وانظر إلى حكاية البطيخة التي أعطى صاحبها خمسة دراهم فلم يبعها له وباعها بثلاثة لمن يملك مائة ألف دينار لمجرد كونه يملك مائة ألف دينارا فانصرف المتنبي وقد علم أنه لا يتم اعتبار الناس له إلا إذا جمع مائة ألف دينار.

وقد كان كذلك، وكل ما صدر عنه في هذا الصدد إنما هو من قبيل المثل الفرسي المولد[1] لما أجمع مليوني *"Quand je*

---

(1) نقول المولد لأنه إنما نشأ بين فرنسيي الجزائر من طغاة المعمرين.

"ferai mon million" وكم بين من يطلب المال ليستعين به على قضاء حقوقه، وأي حقوق هي: أنها لتزري بحقوق الطغرائي التي يقول فيها:

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلا قبلي

وبين من يطلبه لمجرد الحرص عليه وشهوته التي هي مرض من الأمراض، فإن هذا هو البخيل حقاً لا ذاك.

والواقع أننا وجدنا المتنبي صادقاً في كل ما وصف به نفسه من خلال المجد، فلا يصح أن يكذب في هذا الأمر وحده لمجرد حكايات الله أعلم بحالها وحال من نحلها إياه؛ كذلك وجدنا شعره طافحاً بمدح الكرم وذم البخل في أبيات صريحة لا غبار عليها فلا يجوز أن نغض الطرف عن ذلك ونلجأ إلى الفرض والتخمين محملين بعض ألفاظه ما لا دلالة لها عليه لنصحح تهمة أنه كان بخيلاً.

وإذ قد فرغنا من الكلام في النقاط الثلاث التي عنينا بها هنا. فلنتساءل ماذا كان مطلب المتنبي في الحياة ما دام لم يكن يطلب المال لذاته؟

والجواب أن المتنبي كان طالب دولة ولا شك، وكان لا أعدى إليه من أصحاب الدول في عصره، فهو لو تمكن منهم لما رحمهم، بل لرحم شبابه من أن يرحمهم على حد تعبيره هو:

لا يخدعنك من عدو دمعه وارحم شبابك من عدو ترحم

وقد كان يرى المجد في تضريب أعناق الملوك:

ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وتضريب أعناق الملوك وإن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

فلو أن الفلك جرى بموافقة سعيه لعصف بدول عصره جميعاً ولو دولة الخلافة، وأقام على أنقاضها دولة متنبية من الطراز الذي يقول فيه أبو الطيب:

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل

وما أصدق ذاك الذي قال على لسان كافور[1] وقد صور أنه سئل لماذا لم ينل المتنبي ما طلب منه من الولاية؟ "يا قوم، من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ كيف لا يدعي الملك بعد كافور؟"

وحينئذ فماذا كان يصير لو نجح المتنبي في مطلبه؟

إن الدولة العربية كانت قد شاخت في زمنه وتمكن الضعف منها فصارت هامة اليوم أو الغد، وقد رأى هو أن العرب أصبحت تدين للعجم بالطاعة وذلك أمر ليس من صالحهم في شيء:

وإنما الناس بالملوك وما تصلح عرب ملوكها عجم

وإن المسلمين أصبحوا في كل جهة عبيد العصا يسوقهم المتغلب أمامه كما تساق قطعان الماشية:

سادات كل الناس من نفوسهم وسادة المسلمين إلا عبد القزم

(1) قلنا على لسان كافور لأنا لا نرى صحة نسبة هذه الكلمة إلى كافور.

وقد صار أمرهم مع المشركين بين العجز عنهم والرهب منهم:

أرى المسلمين مع المشركين إما لعجز وإما رهب

فإذا قلنا أنه لو نجح في مطلبه لكان ذلك من الخير للعرب والإسلام، لم يكن في قولنا هذا شيء من المبالغة، لأن الرجل كان قوة هائلة لا تقف عند حد ولا ترجع عن قصد، فكان ينفخ من روحه في جسم الدولة المتهالك ويهيب بالأمة إلى حياة المجد والعظمة فما يكون بأسرع منها إلا الاستجابة له والإقبال عليه صادرة عن قوله:

لا افتخار إلا لمن لا يضام مدرك أو محارب لا ينام

ليس عزماً ما مرض المرء فيه همٌّ ما علق عنه الظلام

واحتمال الأذى ورؤية جانيـ ـه غذاء تضوى به الأجسام

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

أمنية المتنبي

التي لم تتحقق[1]

تكلمنا في فصل (المتنبي في ديوانه) على ثلاث نواح مهمة من حياة المتنبي النفسية والخلقية، وهي تنبؤه وعقيدته وأخلاقه وقلنا إن غالب الباحثين جروا على قبول أكثر الروايات التي ترمي إلى الطعن على المتنبي من النواحي المذكورة، من غير أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن مصدر تلك الروايات وما تقتضيه من التناقض التام مع باقي الروايات المنقولة عنه بل مع شعره المجموع في ديوانه.

وقد استوفينا الكلام في ذلك الفصل حسب طاقة الزمان والمكان، وخلصنا منه بنتائج حسنة مبنية على دلائل قوية لم نسبق فيما نظن إلى الكثير منها. ثم تطرقنا إلى الكلام على أمنية المتنبي في الحياة وماذا كان يصير لو نجح في تحقيقها، ولكنا إنما ألممنا بهذا المطلب إلمامة قصيرة لا تشفي من نفسي الباحث غلة، مع جلالة موضوعه وإهمال النظر فيه بالكلية من جميع الباحثين في حياة المتنبي الذين قرأناهم سواء كانوا قدماء أو جدداً.

---

(1) كتبت للعدد الخاص بذكراه من مجلة المغرب الجديد ونشرت فيه.

ونحن نعيد النظر في ذلك مع شيء من التوسع يحدد من جوانب الموضوع تحديداً ويقرب منه ما كان بعيداً. كان المتنبي يرى نفسه مستجمعاً لأدوات الرياسة التي توقل بها عظماء عصره في مدارج الحكم والتسلط على رقاب البشر، وهي البلاغة والشعر والأدب، والشجاعة والإقدام والبصر بالحروب. وكان طموحاً جداً لا يستعظم غاية ولا يعرف في التسامي نهاية، فوقر في نفسه أنه لم يخلق إلا للولاية والسلطان وأنه لا يصلح له إلا الترؤس والحكم. فقام يطلب ذلك.

وجرب القوة إذ خرج في بادية السمارة في قوم من بني كلب، فقائل يقول إنه خرج لطلب الملك وهو الصحيح، وقائل يقول إنه تنبأ وخرج يدعو إلى الدين الذي جاء به، ولكن سرعان ما فشل إذ تقبض عليه الوالي وأودعه في غيابات السجن وما أفلت منه إلا بكثير من التحيل في مدحه والتنصل مما رمي به، فأيقن حينئذ أن القوة لا تجديه نفعاً وأنه لا ينال بها ما يريد.

فاستخدم الوسيلة الأخرى وهي البلاغة التي تمكنه من الاحتكاك بالعظماء والتقرب من ذوي النفوذ والكلمة، فاتصل بسيف الدولة صاحب مملكة حلب ثم بكافور صاحب الديار المصرية وبغيرهما من الوزراء والرؤساء، يمدح الكل ويطري مزاياهم بشعره الخالد آملاً أن يدنيه ذلك من أمله، وأن يرفعه هؤلاء من بساط المداح إلى بساط الممدح، ولكن أمنيته هذه لم يستطع أحد ممن اتصل بهم أن يحققها له ولا أن ينيله منها قليلاً ولا كثيراً.

فاضطرم المتنبي بالغيظ، واحتدم بالحنق على الولاة والحكام وصار لا أعدى إليه منهم ولابسه شعور العداوة نحوهم فكان مهما أخفاه وبالغ في كتمانه يقع في مساقط كلامه، ويبدو من مظاهر أحواله، ولعل أبرز صورة يظهر فيها هذا الحقد الذي امتلأت به نفس المتنبي على ذوي السلطة والنفوذ قوله في تعريف المجد.

ولا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وإن ترى لك الهبوات الكثر والعسكر المجر

كان المتنبي يطلب دولة ولا شك، فرغ نفسه لهذا الأمر طول حياته فلم يشغلها بسواه، ولم يكن كغيره من الشعراء يلهو ويقصف فهو لا يشرب الخمر لأنها تشغل عن المعالي كما قال في سيف الدولة.

ولا شغل الأمير عن المعالي ولا عن حق خالقه بكأس

ولا يحفل بالنساء كثيراً، لأنهن لا يصبن من فؤاده مرمى كما قال:

وللخود مني ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تجاب
وما العشق إلا غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادي للنساء رمية وغير بناني للزجاج ركاب

بل هو قد ترك كل شهوة مما يهتبل به غيره من الأدباء والشعراء في زمانه وقبله وبعده ليتوفر على مطلبه من الرياسة والملك قائلاً في ذلك:

تركنا لأطراف القنى كل شهوة فليس لنا إلا بهن لعاب

◆ ◆ ◆

وفؤادي من الملوك وإن كا ن لساني يرى من الشعراء

وفي سبيل هذه الدولة كان يأخذ نفسه بجمع المال واكتنازه حتى رمي بالبخل، والبخيل لا يقول:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

◆ ◆ ◆

وما رغبتي في عسجد أستفيده ولكنها في مفخر أستجده

فالحقيقة أن جمعه للمال كان لأجل ما منى به نفسه من الملك، يستميل به الناس فإذا هو ثار لا يسلمونه للوالي أيضاً، إذ يجدون عنده أفضل مما يجدون عند الوالي. ولذلك قال:

وما كل بمعذور ببخل وما كل على بخل يلام

ولكن فها هو مع هذا كله قد بدأ يشعر بالفشل الذريع واليأس المريع، فيشكو من الدنيا لأنه يتعذب فيها بسبب بعد همته، وهي بعد لم تعد أن تكون منزلاً لراكب.

لحا الله ذي الدنيا مناخاً لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب

ويستعرض العوائق التي تحول دون مراده فيجد من أولها الدهر:

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر

ثم يحس بعسر مطلبه واستحالة مرغبه فيتهكم بالزمان هذا التهكم المر:

أريـد مـن زمنـي ذا أن يبلغنـي ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

وأخيراً يدفع به اليأس إلى ملاقاة الموت كفاحاً، وتحطيم جميع آماله بيده فاراً من عار الهرب، إذ جاء بنو ضبة لقتاله وكان هجاهم أقذع الهجاء فلما همّ بالهرب ذكره غلامه بقوله:

الخيـل والليـل والبيـداء تعرفنـي والرمح والسيف والقرطاس والقلم

فتوجه إلى مصرعه قائلاً لذلك الغلام النحس: "قتلتني قتلك الله" وطويت صحف حياة المتنبي ولم يبلغ من زمانه ما أمله.

أفرأيت إلى هذه الخيبة القاسية؟ إنها تحور إلى نجاح باهر لم يكن يحلم به المتنبي: لقد عقدت الأجيال بعدها تاج الإمارة للمتنبي وأسست له دولة ليست من طراز دول عصره التي كانت نفسه تذهب حسرات عليها. بل هي دولة الحكمة والأدب، دولة الخلود التي تبقى على الزمن، دولة من رعاياها امرؤ القيس وأبو نواس، وخصم أبي الطيب أبو فراس، فليهن أبا الطيب أن "دويّهُ" قد تجاوبت به أطراف الدنيا بعد ألف عام، ولكن في دولة الأقلام، لا في دولة الحسام، كما كان يرى هو ويؤمل قائلاً في تعريفه المجد عطفاً على البيتين المتقدمين.

وتركـك فـي الـدنيا دويـاً كأنمـا تـداول سـمع المرء أنمله العشر

وبعد، فلنفرض أن أمنية المتنبي هذه قد تحققت، فهل كان يقنع بإحدى الولايات يسوغها إياه أحد الحكام؟ وهل كانت دولته تقيم من أود الاجتماع المائل في ذلك العصر؟

أما السؤال الأول فيكفي للجواب عنه إيراد بعض الأبيات من شعره الدالة على أن نفسه الطموح لم تكن لترضى بالحظ يكون دون حظ غيره من معاصريه كيف وهو القائل:

أي محل ارتقى أي عظيم اتقى

وكل ما قد خلق ا لله وما لم يخلق

محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

وقد كان يجمجم تارة عن ذلك ويلجلج في الكلام فيقول مثلاً:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي؟ ما أبتغي جل أن يسمى!

وكان تارة أخرى يصرح صراحة تكاد تطيح برأسه وتغوله في نفسه كقوله:

إقراراً ألذ فوق شرار ومراماً أبغي وظلمي يرام

دون إن بشرق الحجاز ونجد والعراقان بالقنا والشئام

ومما اشتهر في هذا الباب وهو صحيح المعنى أن كافوراً سئل لم لم ينل المتنبي ما كان يطلبه من الولاية ليتحامى بذلك شره؟ فقال: "يا قوم، من ادعى النبوّة بعد محمد ﷺ ألا يدعي الملك مع كافور؟.."

وأما السؤال الثاني فيتبين الجواب عنه من تعرف آراء المتنبي في دول عصره وما كان ينتقده من أحوال أهله: فالظلم أول الأصول التي بنيت عليها سياسة ملوك زمانه، فهو ينعيه عليهم ويتوعد أهله بالانتقام الشديد كما قال:

عليّ لأهل الجور كل طمرة عليها غلام ملء حيزومه غمر

يدير بأطراف الرماح عليهم كؤوس المنايا حيث لا يشتهى الخمر

وكان يرى فقدان التجانس بين الراعي والرعية من أهم أسباب الفساد الضارب أطنابه في البلاد، فهو لذلك ينعي على المصريين تمليك العبيد بقوله:

أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله في مصر تمهيد؟

ويحرك الكامن من نعرة الجنس في نفوس المسلمين بقوله:

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين إلا عبد القزم

❖ ❖ ❖

وإنما الناس بالملوك وما تصلح عرب ملوكها عجم

ثم هو كثيراً ما ينكر على أهل عصره غلبة الجهل واللؤم وعدم فهم حقيقة الدين كقوله:

أذم إلى هذا الزمان أهيله فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد

وأكرمهم كلب وأبصرهم عم وأسدهم فهد وأشجعهم قرد

❖ ❖ ❖

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم؟!

إلى غير ذلك مما لو تتبعناه لطال الأمر. فهذه أفكاره في أحوال الدولة والجماعة في عصره، وهي كما ترى لا تدل على رضى بتلك الأحوال ولا على اطمئنان إلى أهلها.

فلا يبعد أنه لو كانت الدولة دالت له لرأينا انقلاباً عجيباً في أوضاع السياسة والاجتماع في الأمة الإسلامية في أواسط القرن الرابع، يوحد من فرقتها، ويعرب من عجمتها، ويهذب من خلقها ويعود عليها بما فقدته من حياة العز والسؤدد والمجد الصميم وحبذا لو كان ذلك.

شاعر العربية الأكبر[1]

من كان من أهل التأديب فلا بد أن يكون اصطدم يوماً ما بسؤال أحد الطلبة: من هو شاعر العربية الأكبر؟ ولا بد أن يكون تردد أولاً في الجواب وأبدى اعتبارات مختلفة ثم أجمع رأيه أخيراً وحكم حكماً مسمطاً أنه هو أبو الطيب المتنبي!

أما تردده أولاً فإنه يرى أن أئمة الأدب ونقاد الشعر قلما تطرقوا لهذا الموضوع وأعطوه ما يستحقه من البحث، فغاية الأمر أنهم يذكرون ميزات كل شاعر على حدته ويطرون مواهبه من غير أن يتعرضوا للمقارنة بينه وبين غيره إلا في دائرة محدودة واتجاه خاص.

وأما حكمه أخيراً لأبي الطيب فقد يقال إن الضرورة الوقتية هي التي ألزمته به لأنه لا يجوز أن يجيب بأن العربية التي هي أم اللغات ليس لها شاعر. ولكن هل كان مما ألزمته به هذه الضرورة أن يحكم لأبي الطيب خاصة دون غيره من شعراء العربية الكثيرين؟

فالأمر دائر بين أن يكون للعربية شاعر أو لا يكون وإذا كان فهو أبو الطيب لا غير!

---

(١) كتبت للجنة الاحتفال بذكراه في دمشق.

وقضية ذلك أنه اختلفت أنظار القدماء والمحدثين في قيمة هذا الأدب العربي ومنزلته بين آداب الأمم الراقية، فالقدماء الذين يجلون عربيتهم - ولهم الحق - فيضعونها في مستوى لا تسمو إليه الأبصار يعتقدون أن أدب العرب هو خلاصة المعارف البشرية على الإطلاق وزبدة ما تمخضت به العقول الإنسانية من لدن انبثاق فجر الحياة إلى الآن مستودعاً في قوالب من اللفظ الفصيح والتركيب الصحيح لا تكاد نظائرها توجد في لغة من اللغات، وهم يرتفعون بالأدباء العرب إلى مقام عال جداً. وعندهم أن بعضهم أرفع وأعلى من بعض ولا بد أن يكون واحد منهم هو الأرفع والأعلى مطلقاً.

والمحدثون الذي يسيئون الظن بهذه اللغة ويكثرون القالة في تراثها الأدبي يرون أن البحث في هذه المسألة من قبيل البحث في النتائج قبل المقدمات لأن الأدب العربي عندهم أبتر ناقص مادة ومعنى فهو لا يزال خالياً من القصة والشعر التمثيلي وهذا نقص في المادة، ومع ذلك فإن روح الفردية تكاد تغمره وهذا نقصان معنوي، فكيف إذن نفكر في شاعر العربية الممتاز وأدب العربية بشعره ونثره لم يستكمل تكوينه بعد؟

أما نحن فلا نثق بكل هذه الأقوال ولا تفزعنا هذه التهاويل واعتقادنا أن لحب التقليد وقلة الاطلاع دخلاً كبيراً في نشوء هذه الآراء. فلننظر كيف يكون أبو الطيب شاعر العربية الأكبر على مذهب القدماء ثم نرجع بعد إلى مذهب هؤلاء المحدثين:

لقد تساهل بعض القدماء فكان يحكم للشاعر بالتفوق على غيره من أهل طبقته وسواهم بالبيت المفرد يحتوي النكتة البديعة أو الحكمة الغالية أو التعبير البليغ عن العاطفة الرقيقة أو ما إلى ذلك. وهو مقياس سريع التأثير لا يثبت على حال فكلما حكم لفرد عاد فحكم لأفراد لأنه كيف يكون الشاعر شاعراً ولا يكون له أبيات لا بيت مفرد من مثل هذه المعاني؟

ومع ذلك فإننا بموجب هذا القياس نحكم للمتنبي بأنه شاعر العربية الأكبر لأنه لا يوجد شاعر له من الأبيات المفردة السائرة مسير الأمثال في غالب المعاني التي تخطر في القلب وتجوس خلال النفس ما للمتنبي منها. وذلك شيء مشهود معلوم إذا أردنا التدليل عليه لم تعوزنا عشرات الدلائل وربما لم نزد الناس به عنماً.

وبعضهم يجعل مقياس الشاعرية الغوص على المعاني المبتكرة وحسن التخيل ولطف المسلك في الانتقال إلى الأغراض المختلفة مع فخامة اللفظ وجزالته ووضوح دلالته على المعنى المراد، وأي منا يذكر ما للمتنبي من الآيات البينات والمعجزات الباهرات التي أربى فيها على من تقدم وسبق بها جميع من تأخر؟

فهو أبو الابتكار في الشعر العربي الذي فتح أبواباً من الحكمة والتربية الخلقية والمثل الأعلى لم تفتح لشاعر قبله ولا بعده. وهو صاحب الأخيلة البديعة والمطالع والمخالص والمقاطع البارعة التي لم يكتب لواحد من الشعراء أن يشاركه في بعض منها فأحرى أن

ينازعه شرف الاختصاص بها. وهو المؤثر فخامة اللفظ وجزالته حتى ضرب به المثل في ذلك، فإذا أريد وصف شاعر ما بالفخامة قيل فيه أنه متنبي النزعة، فهو في هذا الأمر ذو مذهب خاص ينسج الناس فيه على منواله وحسبك ما قاله فيه علي بن مظفر:

ما رأى الناس ثاني المتنبي — أي ثان بري لبكر الزمان
هو في شعره تنبأ ولكن — ظهرت معجزاته في المعاني

واختصر المعري ديوانه وشرحه وسماه (معجز أحمد) وناهيك بها شهادة من مثل أبي العلاء ولقد قال علي بن فرجة، قرأت على أبي العلاء ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب، فقلت له يوماً في كلمة ما ضر أبا الطيب لو قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى وأوردتها فأبان لي عوارها ثم قال لا تظن أنك تقدر على إبدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها فجرب إن كنت مرتاباً، وها أنا أجرب منذ زمن فلم أعثر بكلمة لو أبدلتها بأخرى كانت أليق بمكانها. وليجرب من لم يصدق يجد الأمر على ما أقول[1] فبان بهذا

---

(1) في هذا الكلام مبالغة عظيمة ونقضه سهل بمثل قوله:

. جفخت وهم لا يجفخون بها بهم — شيم على الحسب الأغر دلائل

فيقال فخرت وهم لا يفخرون وذلك أحسن وكذا قوله:

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة — ففي الناس بوقات لها وطبول

فلو قال أبواق لكان أحسن.

كيف حاز أبو الطيب الخصل في ميدان المعنى واللفظ، على مذهب القدماء واستحق أن يتوج بتاج الأمرة على الشعراء. ولا تتقاض منا شواهد على ما ذكرناه فإن ديوانه كله شواهد ناطقة بذلك، وإنما إيثار الاختصار هو الذي حدانا إلى عدم ذكر شيء منها حيث لا يصح الاقتصار على بعضها دون البعض الآخر.

ونرجع إلى مذهب المحدثين فنرى أن دعواهم في نقصان الأدب العربي باطلة إذ لا يلزم من فقدان القصة والشعر التمثيلي نقصان الأدب لا سيما عند الأمة التي لم تكن تعبأ بالقصة في دور من أدوار حياتها، وإنما تعتبرها عبثاً من القول وزوراً من الكلام كذلك لم تعن بالتمثيل ولم يشغل حيزاً من فكرها قط فكيف يشتمل نثرها أو شعرها على ما لم يتبين له وجه في حياتها الأدبية أصلاً؟

وإذا كان الأدب هو المرءاة الصقيلة التي تتمثل فيها صور الحياة على وجوهها ومشاعر النفوس بكل ما تنطوي عليه من حب وبغض وسرور وحزن ولذة وألم وطمع ويأس وانشراح وانقباض فما هي فائدة الأشكال اللفظية والأساليب الكلامية بعد حصول المقصود وفهم المراد؟

وبعدئذ فهل يصح أن يقال إن الأدب العربي الذي أدى رسالته في الحياة كما يجب وبطرق هي ألصق بنفوس أهله وإن خالفت بعض طرق الأداء عند غيرهم هو أدب ناقص وأبتر؟

ومن جهة نزعة الفردية التي تغلب على الأدب العربي في زعمهم لا يمكننا أن نقول إلا أن هذه نظرية لا يدعمها شيء من

الاختبار ولا يؤيدها قليل من التمحيص وهي عندنا من قبيل الإيحاء الناشئ عن عدم الاطلاع، وهل نحتاج أن نقيم الأدلة على وهنها وعدم صحتها وأبو الطيب وحده الذي هو عندهم أعظم ممثل لهذه النزعة كاف في الرد عليهم وتسفيه رأيهم؟

حقاً لقد أكثر أبو الطيب في شعره من الحديث عن نفسه وآمال قلبه وآلامه وأفكاره في الحياة، وذلك من أعظم نواحي العظمة فيه بأن الشاعر كل الشاعر من يصدق التعبير عن ذات نفسه وهواجس فكره وخطرات قلبه، فمن ذلك تكون النظريات الاجتماعية والمذاهب الخلقية لأن علم الاجتماع والنفس بل الفلسفة بكاملها إن هي إلا آراء الأفراد مرتبة ترتيب العلوم.

كما أكثر أبو الطيب من الحديث عن جماعة عصره وصورها تصويراً بارعاً بالغاً الغاية في الدقة والكمال، ولكنه لم يفن فيها ولم يفقد شخصيته التي شذت عن أحوال جماعته التي كان يمقتها أشدّ المقت وينتقدها أمر النقد لأنه المصلح الخطير الذي حقه أن يكون متبوعاً لا تابعاً و"المجدد" الكبير الذي مهمته في الهداية لا في الاهتداء فاستمع إليه ماذا يقول:

ودهـر ناسـه نـاس صـغار	وإن كانت لهم جثث ضخام
ومـا أنـا منهم بالعيش فيهم	ولكن موطن الذهب الرغام
أرانـب غيـر أنهـم ملـوك	مفتحـة عيـونهم نيـام
بأجسام يحـر القتـل فيهـا	ومـا أقرانهـا إلا الطعـام

وخيل ما يخر لها طعين كان قنا فوارسها ثمام

ويقول:

وإنما نحن في جيل سواسية شر على الحر من سقم على بدن
حولي بكل مكان منهم خلق تخطي إذا جئت في استفهامهم بمن
لا أقتري بلداً إلا على غرر ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من أملاكهم ملكا إلا أحق بضرب الرأس من وثن
إني لأعذرهم مما أعنفهم حتى أعنف نفسي فيهم وأني
فقر الجهول بلا قلب إلى أدب فقر الحمار بلا رأس إلى رسن

ويقول:

أذم إلى هذا الزمان أهيله فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب وأبصرهم عم وأسدهم فهد وأشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد

ويقول:

ما زلت أضحك إبلي كلما إلى من اختضبت أخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها ولا اشاهد فيها عفة الصنم

ويقول:

أنا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس إحسان وإجمال

إلى غير ذلك ممن يطول تتبعه وقد شهد الخبيرون بأن أقوال المتنبي في السياسة والاجتماع منطبقة تمام الانطباق على أحوال عصره بل أن غالب حكمه وأحكامه منتزعة من صميم واقع دهره،

فكيف يقال بعد ذلك أن روح الفردية تغمر الأدب العربي، وهذا شاعر الفردية في ذلك الأدب يكاد يكون تاريخاً ناطقاً بوقائع الزمان الذي عاش فيه وسجلاً حافلاً بما كان عليه أهل ذلك من أمراض خلقية وعلل نفسية وفساد في أساليب العيش وخلل في نظم السياسة مما لم يتكفل ببيانه أعظم كتب التاريخ جمعاً وأضخمها حجما؟

وإذن فالأدب العربي هو تلك الروضة الغناء، والغيضة اللفاء، المفتحة الورود والأزهار، المنفجرة العيون والأنهار، وأبو الطيب المتنبي هو بلبل تلك الروضة، وصداح هاتيك الغيضة!

خواطر في تعليم المرأة[1]

منذ أكثر من ربع قرن والكتاب والمصلحون في العالم الإسلامي عامة والشرق العربي خاصة يهيبون بالأمة إلى تعليم المرأة ويحضون على انتشالها من بين أظافر الجهل الذي قضى على سائر معنوياتها فلم تبق إلا جسماً مادياً قوامه المادة وغايته المادة، وبذلك فقدت من الحياة الإسلامية روح الإلفة والتعاون لغيض منبعها في نفس المرأة، فصارت هذه الحياة مضرب الأمثال في التفكك وعدم الراحة مع ما تقتضيه من كثرة الواجبات وفداحة التكاليف. ولم يزل الكتاب والمصلحون حتى الآن يرفعون عقيرتهم بوجوب تعليم المرأة وإصلاح شؤونها على النهج الذي تتطلبه الحياة الإسلامية من مراعاة الأعراف والعادات كي تتحامى غير المتعلمة نتيجة الجهل الموبقة ولا تتصادم المتعلمة بما تصادم به بعضهن من دواعي الخروج على سنن الاجتماع الإسلامي لانبناء تعليمهن على أساس مغاير لما يقوم عليه هذا الاجتماع ولكن هذه الدعوة كسائر الأمور النافعة لا تلقي لها الأمة بالا بل تدع زمامها بيد المصادفات تصرفها

(1) نشرت في مجلة المغرب الجديد، السنة الثانية.

بحسب الظروف والغايات. وقد تكون هذه الظروف غير ملائمة، وقد تكون هذه الغايات غير شريفة؛ إنما الأمة تبقى بمعزل عن هذا الأمر والتفكير فيه فإذا وقعت الواقعة فحينئذ تهب مذعورة تقرع سن الندم ولات ساعة مندم.

لو قبلت الأمة فكرة تعليم المرأة أول ما نادى بها المنادون لكان للمجتمع الإسلامي اليوم شأن غير ما هو عليه. ولما صارت الفتيات يكسرن قيودهن بأيديهن ويخرجن عن أصول الأدب والحشمة ويخلقن هذه الفوضى الاجتماعية الهائلة، من أزمة الزواج وما إليها بسبب الجهل المطبق الذي أعماهن عن أن يكون لهن سلوك حسن في الحال أو نظر فاحص في المستقبل، ولو سارت الأمة في تعليم المرأة على النهج المطلوب لما رأيت هذه العلة السارية في جسم المجتمع الإسلامي نعني هذا التفرنج الآثم الذي قضى في بعض البلاد على الروابط المحكمة بين ماضي الأمة وحاضرها ويوشك أن يقضي عليها في البلاد التي لا زالت لم تأخذ بخطة الحزم في هذا الأمر.

ويعترض خصوم هذه الفكرة فيقولون إن تعليم المرأة إما عال أو غيره والأول يقطع صلة المرأة بالرجل تماماً والثاني يطوح بها في متاهات الضلال فتؤذي نفسها والناس.

والمرأة لم تخلق للعلوم بل للبيت وإن التاريخ ليشهد بذلك فالنبوات والانقلابات الاجتماعية الكبرى لا أثر للنساء فيها وذلك يدل على أنهن لم يخلقن لهذه الشؤون.

وجوابنا أن تعليم المرأة على قسمين قسم يجب أن لا تخلو منه امرأة على العموم وهو ما يؤول إلى التربية الدينية والتدبير المنزلي ومبادئ العلوم النافعة، والثاني كل المعارف البشرية التي يشتغل بها الرجال على الإطلاق، فمهما أرادت المرأة شيئاً من ذلك لا ينبغي أن نمكنها منه فقط، بل نهلل ونكبر إيذاناً بالفتح المبين الذي نستقبل عهده في أمور الدنيا والدين.

ولا يمكن أن يكون تعليم المرأة بقسميه سبباً في خروجها على السنن الفطرية والوضعية كما يقولون، وإلا لكان تعليم الرجل من جهة أخرى سبباً في انتقاضه على تلك السنن فمهما تعلمت المرأة فإنها ستبقى محافظة على وضعيتها الاجتماعية محافظة عل حسن علاقتها بالرجل، كما أنه هو لم يفرط يوماً ما في تلك الوضعية ولا في تلك العلاقة مع تقدمه العظيم في التعليم.

بل لن يزيد تعليم المرأة، المرأة إلا تمسكاً بأخلاقها وعفتها وتمسكاً بالرجل كما زاد تعليم الرجل، الرجل كثيراً من ذلك.

وهذا الزيغ المشاهد في كثير من المتعلمات لا يغرب عن البال أن سببه هو زيغ طرق التعليم عما كان ينبغي أن تكون عليه كما ألمعنا إليه أولاً، فلا ينبغي أن تحمل الفكرة أوزار الغلط في كيفية تطبيقها بل إن شكلية التعليم بمعنى مطابقته للأحوال النفسية والأوضاع التربوية في الاجتماع الإسلامي هي من صلب الفكرة التي ندعو إليها، فلم تنفذ الفكرة إلى الآن.

نوابغ الرجال في العلوم والفنون هم بحق أكثر من نوابغ النساء. ولكن هل درى الرجل أن العلة في ذلك هو هذا النطاق المحكم الذي ظل مضروباً على المرأة من لدن انبلاج فجر الحياة الإنسانية حتى اليوم؟

الرسل والأنبياء حقاً من الرجال وليس ذلك إلا لأن الرجال في الواقع هم أكثر المعاندين والمتعصبين على الدين، أما النساء فسرعان ما يجبن الداعي إلى الله بقلب ملؤه الإيمان واليقين.

فهذه حجج خصوم الفكرة قد نقضت كلها واحدة واحدة، ومن يريد أن تقوم دعائم نهضتنا على مثل هذه الآراء الفاسدة؟

ثم إن هناك كثيرين يتألمون من إقبال الشبان على الزواج بالأجنبيات، وما دروا أن العلة الوحيدة في ذلك هو جهل فتياتنا اللائي أصبح بينهن وبين الشبان بون بعيد في التصور والاستعداد فإما أن يزجوا بأنفسهم في عوالمهن وهو الانتكاس بعينه. وإما أن يحافظوا على تكوينهم فتحور الحياة عذاباً أليماً لأنها جمع بين متناقضين. بين العلم والجهل بل الجمادية والحياة.

أما إننا فنقر أن الزواج بالأجنبية قد يؤول إلى أكثر من هذا فلمن يشتكي منه كامل الحق ولكن هل قدر على شبابنا أن لا يكونوا في حالة هي خير الحالات بل في جهنم أو في السعير؟!

قد كان في البنات دين وحياء وعفة وقناعة، واليوم رحمة الله على تلك الأخلاق فإلى قعر أية هوة تسير البنت؟

إن النتيجة من تعليم البنت مزدوجة للبيت والولد، فالبيت الذي ينبني على أساس من العلم لن يخرب أبداً، والولد الذي يتربى في حضن العلم لن يكون إلا قرة عين لامته.

لن تذهب ميوعة الأخلاق عن الشباب، ولن يكون في الأمة نشأ صالح يأخذ بيدها إلى مواطن العزة والكرامة حتى تتعلم النساء فيعرفن كيف يبنين أبناءهن وتكون هذا النشأ.

وما دامت الحال على ما هي عليه فلن نستبشر بهذه النهضة الجديدة، لأنها ستكون نهضة عرجاء لا تمشي إلا على رجل واحدة.

زواج أديب
قصّته في رسائله

(1)

عزيزي عبد الله:

أحييك وأصافحك وأود لو ألقاك، وأبلّ غليل الشوق بمرءاك، طالت غيبتك وطال العهد برسائلك اللطيفة التي تطفح بدلائل الود الصميم، والخلق الكريم، فهل أحدثت عهداً جديداً أنساك ما كان بيننا من الألفة والوداد؟ أم آنست شيئاً تكرهه من هذا الذي لا يزال يصفيك المحبة والإخلاص؟ إني لأجد عليك حينما أفكر في هذه القطيعة التي ما إن لها من سبب، إلا أني أفكر في كوني لم أجعل لها حداً بمفاتحتك بالكتابة فألوم نفسي أيضاً على تساهلها.

ولكن لم يصح مني العزم إلا هذه المرة التي جئتك فيها أحمل نبأً جديداً بل بشرى عظيمة لا أشك أنك ستسر بها كثيراً وتشاطرني الفرح الذي يغمرني في هذه الأيام لأجل الحادث المهم الذي سيغير مجرى حياتي ويذهب عني هذا السأم المضني ويجدد نشاطي الجسمي والعقلي ويطلق عقالي من هذه الوساوس التي لا تنفك

تعتادني آناً بعد آن حتى لتظلم الدنيا في عيني وأصير إلى شبه الجنون من تأثيرها على أعصابي ومجموع حواسي.

ذلك أني تزوجت، نعم تزوجت واتخذت القرينة التي تشاطرني حياتي وتشاركني أفراحي وأحزاني وتعينني على حمل أعباء العيش فتشجعني على العمل وتبث في روح الاستقامة والفلاح وتطرد عني أشباح الضجر والكسل التي تلوح لي في كل مكان وتنوح لي بالخيبة والحرمان في كل مسمى. وأخيراً لقد تمت منذ الآن رجولتي وأصبحت صاحب عائلة متحملاً بمسؤولية إعالتها وحمايتها والتهمم بمستقبلها الذي يجب أن يكون سعيداً مجيداً.

أتدري بمن اقترنت؟ إنها ابنة خالي المرحوم التي أعرفها ولا يغيب عني شيء من أحوالها في الماضي والحاضر إلا ما تكون عليه بعد الآن حتى بنائي عليها حيث إن العادة - كما لا يخفاك - قاضية بحجبها عني بعد ملاكي بها. وهي قد نشأت في بيتنا تقريباً فلذلك لا بد أن تكون على خبرة بأخلاقي وميولي، فلو أني بحثت السنين والأعوام لما وجدت زوجة موافقة مثلها فضلاً عن قرابتها التي لها من التأثير في حسن العشرة وطيب المعاملة ما لا يخفى.

فهذا نبأي الجديد الذي أحمله إليك اليوم مغتبطاً مسروراً ويقيني أنك ستلقاه بمثل الغبطة والسرور ويكون باعثاً لك على الكتابة إلي والجواب عن رسالتي هذه أدام الله لك الصفاء والهناء ولي.

(2)

أخي عبد الله:

لقد كان يوم الجمعة الأسبق فريداً في حياتي، انتقلت به من طور إلى طور وطويت صفحة من تاريخ حياتي ونشرت صفحة؛ لقد بنيت على عروسي في ذلك اليوم فانتقلت من طور العزوبة إلى طور الزوجية وطويت صفحة التاريخ المملوء بالنزق والطيش بل بالسهوم والوجوم ونشرت صفحة التاريخ المفعم أنساً وسروراً وأملاً وغبطة، إنما نفسي لا زالت لم تسكن تماماً من قلقها وشعوري مضطرب قليلاً، والسبب على ما أظن بل أجزم هو هذه المظاهر الفارغة التي تحاط بها حفلة الزواج والتي تتنافى مع كل ذوق، ومع ذلك لا بد من الخضوع لها والظهور بها أمام الناس.

أما سفه الدايات وجرأة الماشطات فلم يكن لي فيهما حيلة إلا الهروب والثورة لأنهما شيء ينفذ معه صبر الحليم ولا يقر عليه إلا من نضب ماء الحياء من وجهه:

فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

ولذلك فأنا في هذه الأيام أعيش عيشة متكلفة ليس فيها شيء طبيعي حتى الزوجة لأنها من كثرة ما يحملونها من الحلى والحلل وما يدممونها به من الأبيض والأحمر تستنكر نفسها وتصير تتكلف هي أيضاً ما يتناسب مع حالتها تلك. فقاتل الله الجهل وقاتل هذه

العوائد الذميمة التي لا يرضاها شرع ولا طبع وإنما هي بقية من الجاهلية والهمجية الرعناء.

أرجو أني أكتب لك بأطول من هذا في غير الأمور الشخصية بعد قليل، ولكن لا تظن أن كتابك أقنعني بعذرك في عدم الحضور بحفلة الزفاف لا سيما وقد كنت أكدت لي شفاهياً في آخر قدوم لك إلى مدينتنا أنك حاضر من غير شك، فلا تنس هذا إلا خلاف فإني لا بد جازيه والسلام.

(3)

عزيزي عبد الله:

ها لقد مرّ علي خمسة أشهر وأنا متزوج ومع ذلك لا زلت لم أفرغ لنفسي واقض حاجاتي المعلقة التي من ضمنها الكتابة إليك مجيباً عن رسائلك العديدة التي واليتها إليّ في هذه المدة إني أشعر باضطراب في أحوالي الشخصية كلما حاولت أن أعرف أسبابه أشتبه على الأمر، فلا أنا أهتدي إلى سبب معقول ولا أنا هادئ النفس مطمئن البال كما يجب أن أكون.

أعني أني أنكر حالتي الحاضرة لأنها لم تساعدني على المضي في سبيلي المعلومة، فلا فرغ في الوقت ولو بنسبة النصف إلى ما كان لي من قبل، ولا حرية في العمل كما ينبغي بل ولا تمكن من العمل إلا اختلاساً مع أن عملي كما تعلم في البيت وغالبه عمل أدبي محض مما لا يكلف عناء ولا يقتضي مجهوداً.

وقد انقلب نظام معيشتي تماماً فأوقات الخروج والدخول لم تعد كما هي، وأوقات الأكل لم تكن بحسب الحاجة، وكذا النوم. ومع أني أنام مبكراً فلا استيقظ إلا متأخراً دائماً وعلى هذا المنوال.

فإذا بحثت عن العلة في جميع ذلك لم أجدها، وإنما الواقع هو هذا، وقد يخيل لي أني أقدر أن أراجع حالتي السابقة في كثير من اليسر والإمكان فإذا حاولت ذلك بالفعل تبين لي خطأي وإني لا يمكنني الإفلات من سيطرة هذا الكابوس القوي فاللهم رحماك!

أخشى يا عزيزي أن تكون حياتي الزوجية هي السبب في هذا العيش الضنك وإذاً فسلام على تلك الآمال المعسولة التي كنت أظن أني بالغها في هذه الحياة. ويا لهفي على عهد النشاط والحرية وايام العزوبة السعيدة.

سلامي إليك أيها العزيز وإلى أخيك وسائر أفراد العائلة الكريمة ودمت.

(4)

عزيزي عبد الله:

لقد تمادت بي الحال على ما ذكرت لك منذ مدة. ولذلك لم أتمكن من إجابتك عن رسائلك التي أبديت فيها اهتماماً خاصاً بأخيك وعطفاً زائداً نحوه لما يعانيه من ألم نفسي وتعب روحي كما عبرت أنت ولو قلت وجسدي لما أخطأت.

فإن أخاك قد أصبح مضني الجسم والقلب مجهودهما بسبب هذا الزواج الذي يقولون إنه سعادة الحياة وما أراه إلا نقمتها التي تصب على رؤوس الأزواج يوم الجلوة المشؤومة.

وأقفك على جلية الأمر لترى هل إني أبالغ في التشاؤم وأنظر إلى الحياة بمنظر أسود أم هي الحقيقة المجردة التي لا يمتري فيها إنسان.

لقد كتمتك إلى الآن إني لم آنس بهذه الزوجة ولم أسكن إليها سكون الرجل إلى المرأة قط، وإن علاقتنا لم تعد الاتصال الجنسي وتفاهمنا لم يكن إلا على ضروريات الحياة، فمحادثاتنا جافة وقليلة مع ذلك، وإني لأنهي بسرعة كثيراً من المسائل التي تقتضي مداولات طويلة معها وإن كانت هي تستاء جداً من طريقتي هذه، إذ تظن أني أتعمد إغاظتها وإني أكره محادثتها وعلم الله أني الذي كنت أغتاظ من ذلك وإني لا أقول لها كلمة بدافع كره لها وإنما هو الملل والسآمة.

ثم إنها تمادت في ملاحقتي وتقصي أثري حتى لم أعد أستطيع أن أنفرد بنفسي ولو لحظة واحدة فثقل عليّ ظلها وملازمتها لي وصرت أتمنى لو يزور البيت في كل وقت ضيف من الأهل والأقرباء أو يستدعيها واحد من هؤلاء لأخلص لنفسي ساعة من زمن وأتنفس قليلاً في جو حر ليس علي رقيب ولا حسيب، ولكن أَنّـى لي أن أحظى بهذه الأمنية وقد أبى نحس الطالع إلا أن يعكس

القضية، فهي صارت لا تحب مغادرة المنزل ولا ترغب في مقابلة الضيفان وإن كانت تلك هي أمنيتها من قبل، التي كم تخاصمنا بسببها ولم يكن ينفعني إلا النزول على رأيها فيها.

وكأنها لما شعرت بتضايقي من هذه الحالة ومحاولتي للتخلص منها ظنت أن السبب في ذلك هو عدم حبي لها ورضاي بها زوجاً فصارت تشك فيّ وتسيء الظن بمستقبل علاقتي معها ولذلك فقد رأيتها أمس قد غلبتها عيناها وبكت، وإن عزت هي ذلك البكاء إلى غير هذا السبب.

داورتها عن نفسها فلم تقل شيئاً وأظهرت لها مكنون ضميري وإني لا أريد بها بدلاً وإنها زوجي الوحيدة إلى أن أوسد في التراب دفيناً، فلم تقتنع وزادت في البكاء فزدت أنا يأساً وقنوطاً ولم أدر ما أفعل.

فيا لأخي العزيز لهذا الخطب الجلل الذي ضقت به ذرعاً. أرشدني أرشدك الله وأدل إلي بنصائحك الغالية وإني لك من الشاكرين.

(5)

أخي العزيز:

شكراً شكراً على كتابك المملوء عواطف وإخلاصاً ونصحاً لصديقك الذي يقدر لك ذلك أحسن التقدير. ولكن قد سبق السيف العذل فلم يبق محل للتدارك إذ أنها قد نشزت وخرجت الآن عن عصمتي بعد الحادثة السابقة التي استنجدتك فيها بثلاثة أيام طلبت

مني الذهاب إلى بيت أمها بعلة الزيارة وصلة الرحم فأذنت لها ولكنها خرجت ولم ترجع وأرسلت في طلبها فأجابت أنها لن ترجع أبداً. وعندما بحثت في غرفتها وجدت أنها قد حملت معها كل أمتعتها وثيابها فقضيت العجب كيف استطاعت ذلك بدون أن يشعر أحد ممن في البيت. ثم علمت أنها كانت ترسل ذلك شيئاً فشيئاً قبل عدة أيام.

لقد علمت أني ما كنت أنوي مفارقتها أبداً، ولقد حسنت معاملتي معها كثيراً - قهراً عني - بعد تلك الحادثة التي قلت لك أنها بكت فيها وتأثرت كثيراً من بكائها وفي نفس الليلة التي ذهبت في صباحها تركت جميع أشغالي وسهرت معها طويلاً ولم أترك ضرباً من ضروب المؤانسة والملاطفة إلا أتيته إكراماً لها. فالحمد لله على أني لم أظلمها ولم اقطع حبلها بيدي، وإن ما عاملتني به أخيراً من خداع ومكر ليقوم بجميع ما أسلفت لها من غير قصد من سوء عشرة وضرار.

أدب الرافعي[1]

كان الرافعي أحد أعلام الأدب العربي الكبار إن لم يكن واحدهم وكبيرهم، سد من مفاقر الإنتاج في هذه اللغة الشريفة ما لولاه لم يسد، وظهر بأسلوبه البديع الذي لم يقلد فيه أحداً ولم يستطع أن يقلده فيه أحد، فزاد في عصور تاريخ أدب العرب عصراً قوامه منه فقط ووجوده به لا غير.

كان الأدب القديم - كما يسمونه - قد اضمحل واندثر ودالت دولته وذهبت صولته فبعثه وأحياه ولكن لا بنفخ الروح في عظامه الفانية ورممه البالية، وإنما بإعادة تكوينه من جديد وابتداء خلقه ثاني مرة. فأنت إذا قرأته أحسست أنك تقرأ إماماً من أئمة اللغة وحجة من حجج العرب أهل القرن الثاني أو الثالث لتمكنه من مادته وبلوغه الغاية في عبارته وترفعه عن سقط الألفاظ وتصرفه في الكلم تصرف الواضع الذي تنقل عنه اللغة ويقتدى به فيها. وأنت إذا درسته خرجت من دراسته بفلسفة عالية تزاوج بين العلم والدين

(1) كتبت للجنة تأبينه بفاس.

والأدب والخلق وتنزل في شرع المادة على حكم الروح وفي شرح الروح على حكم المادة. ليس فيها إلحاد ولا تعصب وليست دعوة إلى إباحية ولا تزمت.

كانت موجة التفرنج قد طغت على أبناء العرب، الذين تعلموا منهم في أوروبا بالإيحاء والذين لم يبرحوا ديارهم بالتقليد، فأثرت تأثيراً سيئاً على اللغة والتقاليد وكادت تؤثر على الدين أيضاً. فكانت رسالة الأدب حينئذ هي إيقاف التيار عند حده لكيلا يجرف من بقي في نجوة من طغيان تلك الموجة ومحاولة إنقاذ الذين كانوا يتخبطون في ليلها المظلم وإن كان الأمل بإنقاذهم أوهى من بيت العنكبوت، فأديب العروبة الحق هو من يقوم بهذه الرسالة ويؤديها على الوجه الأكمل. وقد انتدب لها الرافعي وحرص على بلوغها كل الحرص، فبينما كان الناس بين متشكك في دعوته ويائس من نجاحها أصلاً، كان هو موقناً بالفوز والنصر ماضياً في سبيله بعزم وثبات.

وقضى ربك أن يكلل سمى الرافعي بالنجاح فتسكن العاصفة وتهدأ الثائرة ويتراجع أبناء العروبة إلى حصن قوميتهم مؤمنين بقدسيتها معتقدين أن الشرف كله في المحافظة عليها، ويسجل للرافعي هذا النصر الباهر بمداد الفخر في تاريخ العروبة والإسلام ولو أن بعضهم يقول إن تلك النزوات إنما تكون ظواهر وقتية صحبت عصر التحول والانتقال الذي قطعته الأمة العربية

بعد الحرب العظمى ثم زالت عند استقرار الأحوال وانتظام الأمور.

كانت فكرة الرافعي الامتياز في النجاح لا النجاح فقط، فكان لا يزال يسمو حتى يحلق في جو من العبقرية لم يطف به حلم مفكر ولا حام حوله تصور فيلسوف فيستنزل من آيات البيان ما أن بعضه (إعجاز القرآن).

وكان اكثر ما يكون سمواً في تحليقه إذا عالج موضوعاً من هذه المواضيع التي تمت للفضيلة بصلة أو تشتبك من الدين بوشيجة أو تدلي إلى العزة القومية بسبب ونسب، فهناك تجد متعة الحس والخيال وسلوان النفس والفؤاد ومرتع الفكر ومسرح الخيال. فمن معنى مبتكرٍ إلى توليد غريب ومن نكتة مستطرفة إلى كناية غريبة، بله البيان الساحر والافتنان الأخاذ حتى ليمكن أن يقال في كتاباته التي من هذا القبيل سواء كانت قصيداً أو مقالاً أو كتاباً كاملاً أنها لا تخلو من جديد وطريف إن في المعنى أو اللفظ أو فيهما معاً.

والعجيب في أسلوب الرافعي هو تأليفه بين الحقيقة والخيال وجمعه بين صورهما على نسق يبدوان معه في أتم التئام وأعظم انسجام. ولشعره في ذلك أسوة بنثره فلا تظن أن الوزن يتكاءده، ولا أن القافية تعانده، اقرأ ما شئت من شعره أو اقتصر على نشيد سعد ونشيد الشبان المسلمين ولنذكرك بهذا البيت منه:

إنما الإسلام في الصحرا امتهد ليجيء كل مسلم أسد

واقرأ ما شئت من نثره الكثير ولا سيما رسائل الأحزان وذيلها والمساكين.

كان عيب الرافعي في نظر بعضهم هو هذه القعقعة اللفظية وهذا التقعير في التعبير بحيث أنه كان يتصيد الكلمة الجزلة وأختها المناسبة لها في القوة فيجيء كلامه مستعصياً على الفهم داعياً إلى التأمل الطويل.

ونحن لا نرى هذا عيباً ولا ندعوه إلا بالأسلوب المتين الذي كان على الرافعي أن ينهض به حين شاعت الألفاظ السوقية في كتابة الصحفيين وضعفت المادة اللغوية عند كثير من المنشئين. ولئن كان أسلوب الرافعي من أسباب الخصومة بينه وبين الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد حتى قال في كتابه (الإعجاز) ما قال، وهو أيضاً الذي جعل حجة الإسلام المرحوم السيد رشيد رضا يقوله في كتابه (المساكين) أنه قرأ جله ولم يفهمه -- فلقد كان ذلك الأسلوب نفسه هو الذي حمل زعيم الشرق الخالد سعد زغلول باشا على أن يقول كلمته المأثورة في إعجاز الرافعي: "بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من النور الحكيم" وبعث العلامة الطيب الذكر أحمد زكي باشا إلى القول عن صاحب المساكين: "لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير وهيجو كما للفرنسيين هيجو وغوته كما للألمان غوته".

رحم الله الرافعي وعوض الأمة منه خيراً.

بين الرافعي والقشاشي

على ذكر الخصومة بين الرافعي والعقاد. نقول إنه بعد وفاة الرافعي عادة هذه الخصومة إلى الظهور من جديد في مجلة الرسالة بين أنصار الكاتبين الكبيرين: فإن الأستاذ محمد سعيد العريان الذي كتب تاريخ الرافعي، عرض لخصوماته الأدبية بما أحفظ الأستاذ سيد قطب من مريدي العقاد، فأثارها حرباً شعواء على الرافعي وتلامذته وانبرى لنصرة الفريقين كثير من حملة الأقلام وكانت حركة مباركة بما نتج عنها من بحاث قيمة في أدب كل من الرافعي والعقاد.

وقد كان مؤرخ الرافعي أغفل خصومة وقعت بينه وبين القشاشي فكتبنا نبهه إليها تحت العنوان أعلاه.

وغرضنا من إثباتها هنا الإشارة على أن مثل هذه الخصومات، السبب الغالب في نشوبها هو سوء الظن أو على الحيقفة نفاسة الأدباء بعضهم على بعض. ولولا ذلك لما تفرغ كل من الرافعي والعقاد لتسقط عثرات الآخر ووصفه بما وصفه به مما اتخذه أنصارهما محوراً تدور عليه مجادلتهما العنيفة:

مضى الأستاذ محمد سعيد العريان مترجم فقيد الأدب العربي المرحوم مصطفى صادق الرافعي في سبيله يكتب ذلك التاريخ الزاهر

وينشره بشكل مقالات في مجلة الرسالة حتى بلغ الآن المقالة (32) وفيها دعا من كان عنده شيء من أخبار الرافعي غير ما ذكره هو، أن يتفضل بالكتابة إليه رأساً أو على صفحات الرسالة يحيطه علماً بذلك. وفاء بحق الأدب وأهله ورجاء إتمام ذلك التاريخ الذي كاد يغمره النسيان ويجني عليه الإهمال. ونحن إجابة لدعوة الأستاذ ننبهه على خصومة أخرى كانت قد نشبت بين الفقيد الكريم والأستاذ مصطفى القشاشي صاحب مجلة الصباح، ولعلها آخر الخصومات الأدبية للرافعي وقد كانت هي التي أوحت إليه بمقال "صعالك الصحافة" المنشور بالرسالة (أعداد 189، 190، 191، 192) وقد عرض فيه بالصباح تعريضاً مكشوفاً إذ أتى في العدد (191) على جملة من عناوين مقالاتها التي كانت صدرت فيها أثناء تلك المدة، كنماذج للموضوعات السافلة التي تطرقها بعض المجلات.

وكان السبب في هذه الحملة من الرافعي على صاحب الصباح أنه حمل إليه كتابه وحي القلم ورجا منه أن يكتب تقريظاً له، وهذا ما يؤخذ من كلام القشاشي. وبما أن القشاشي تأخر مدة عن كتابة التقريظ وعذره أن الكتاب ضخم يتألف من جزءين في تسعمائة صحيفة ويتناول مائة موضوع وموضوع، فإن الرافعي ظن السوء بصاحبه وقام يجلد صعاليك الصحافة، وبالله من غضب الرافعي فإنه يزري بغضب عنترة!

وشاءت سخرية القدر أن يبرز مقال الصباح في تقريظ وحي القلم بعد أن نشر الرافعي ثلاثة اقسام مقالة صعاليك الصحافة، والقسم الثالث منه الذي به انكشف مراده فظهر أنه يعني صاحب الصباح صدر في عدد (191) أول مارس 1937 على حين أن تقريظ الصباح كان في عددها (545) الصادر في خامس مارس المذكور.

وقد كان تقريظاً بليغاً يرضى الرافعي ويدخل على نفسه السرور، وحسبك منه هذه الجملة التي يقول فيها الأستاذ القشاشي: "إن كتاب وحي القلم ليحتاج إلى كتاب آخر في الإشادة بذكره، فلعل ضيق المجال يعتذر لنا عند الأدب العربي ثم عند الأستاذ الرافعي".

ولكن الأستاذ الرافعي قد عجل - وفي العجلة الندامة - فسرعان ما انقلب مدح الصباح له قدحاً فيه وثناؤها علينا طعناً. وكنا نحن قد انتظرنا ذلك لما قرأنا القسم الثالث من مقال صعاليك الصحافة فكيف وقد قرأنا أيضاً ثناء الصباح وتقريظها وأخذتنا الشفقة على الأستاذ الكبير الذي طالما أشفقنا من الخصومات التي كانت تثور بينه وبين أهل الأدب ولا سيما الإمام العقاد.

وهكذا صدق ظننا فبرز مقال الأستاذ القشاشي (صعاليك الأدب واستجداء المدح والثناء) في العدد التالي من الصباح ولا تسل عما يحتوي من فوارض الكلام وفاضح التعريض.

قلنا إننا نشفق من هذه الخصومات التي تقع بين كبار الأدباء، لأنها في الغالب لا يكون باعثها النقد النزيه فيسمج عندنا أن ينزل مثل العقاد والرافعي من عليائهما إلى ميدان المهاترة إرضاء لحالة الموجدة وطبيعة الغضب كما وقع في قضية الرافعي والقشاشي، فبينما الصفاء والسلام إذ الحقد والحرب.

ونحن لسنا من مقلدة الرافعي ولا من المتعصبين للعقاد ولكن لهما معاً عندنا مقام سام وفي نفسنا لكل منهما حيز لا يشغله الآخر.

عرفناهما معاً من قديم واغتبطنا بآثارهما كل الاغتباط، وكنا نأسف على ضياعهما بين قومهما وعجم عرفان حقهما حتى جاءت الرسالة فعرفت بالرافعي الذي كان أكثرهما ضياعاً وأنكرهما عند جمهور القراء في العالم العربي.

وسيكون لهما من الذكر في مستقبل الأيام ما يغطي على غيرهما أياً كان بل أنهما سيكونان علمي عصر النهضة في تاريخ الأدب العربي الحديث ورمز المذهبين المدرسي والابتداعي المتكونين في هذا الأدب كما يجب الآن.

ولسنا ندلي برأي إلى الأستاذ العريان، وحسبه من كلمتنا هذه ما يتعلق منها بخصومة الرافعي والقشاشي.

لكن القراء أيضاً لهم حظهم فيما يقرؤون فلذلك تطرقنا ولو بهذه الإلمامة الخفيفة إلى وجه الرأي عندنا في أدب الرافعي والعقاد

حاسبين أن ما كان بينهما من خصومة إنما هو نتيجة الغيظ وحدة البادرة وإن ما كتبه كل منهما في هذه الخصومة إنما كان من قبيل ما كتبه الرافعي والقشاشي باعثه الظن السيء والعجلة.

والقوم في عمرو بن الأهتم وما كان بينه وبين الزبرقان بن بدر من المنافسة والمشاتمة بحضرة النبي ﷺ شافع وعذر.

ماضي القرويين وحاضرها[1]

كتب الأستاذ علي الطنطاوي في العدد (236) من الرسالة بمناسبة إظلال العيد الألفي لجامع الأزهر يقترح على أبناء جامع القرويين والزيتونة والنجف أن يتحدثوا لقراء الرسالة عن شيء من تاريخ هذه المعاهد وما ساهمت به في خدمة الثقافة الإسلامية وفنون المعارف الأخرى، كما سيتحدث أبناء الأزهر في ذلك العيد القريب عن أزهرهم ويقومون بإحياء ذكراه الخالدة المحفوظة في ضمير الزمان، ما بقي من يراعي الجميل من بني الإنسان.

وذلك لأن كثيراً من الناس يتشوقون إلى معرفة أحوال هذه المعاهد والأطوار التي اجتازتها منذ تأسيسها إلى الآن. وسيبلون عطشهم بالنسبة إلى الأزهر، أما بالنسبة إليها فسيبقون أعطش ما كانوا قط، لأن الذكرى تبعث الذكرى. فلا أقل من أن يحظوا ببلالة من العلم في كلمة أو كلمتين عن تلك الجامعات التي غبرت هي والأزهر مدى أجيال تشع على العالم بأنوار العلم والمعرفة وتتدرج بالفكر الإنساني في مدارج النمو والارتقاء.

---

(1) نشرت بمجلة الرسالة في الأعداد 261، 268، 269، 270.

وقد استحسنا اقتراح الأستاذ ولبثنا مدة ننتظر من يستجيب له ويمتعنا بالحديث عن أي جامع كان من تلك الجوامع، فما ظفرنا إلا بالخيبة والملل. وأخيراً تكلم بعض أفاضل النجف عن جامعه وهو ثالث الثلاثة الأحق ببسط الكلام فيه والتوسع في الحديث عنه ولكن ذلك الفاضل اقتضب القول فيه اقتضاباً ووعد بالتبسط مرة أخرى وإنا لوعده لمنتظرون.

وقد حبب إلينا لما بقي الميدان خالياً بل رأينا من الواجب أن نتقدم بكليمات عن جامعنا القروي العامر يتعرف بها الجمهور العربي من قراء الرسالة عظمة تاريخ ذلك المعهد وما قام به من خدمات جلى للعلم والمعرفة طوق بها المدنية الغربية في فجر نهضتها بأياد بيضاء.

فأولى الميزات التي تبعث على الفخر والازدهاء، وهي مما اختص به هذا الجامع أن مؤسسه امرأة، وامرأة من صميم الشعب لا ملكة ولا أميرة. وفي هذا ما يكفي لرد ما يتقوله المتقولون على المرأة المسلمة ويصمونها به من الجهل والتأخر عن مجاراة سنن الحياة. إذ ما عهدنا في تاريخ أمة من الأمم ولو في العصر الحاضر أن يكون مؤسسو الجامعات العلمية من النساء. ولكن الإسلام الذي رفع من شأن المرأة وأعلى من قدرها إلى ما لم تبلغه في أية شريعة أخرى سواء كانت سماوية أو وضعية هو الذي سما بنفس السيدة (أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري) إلى هذا المقصد النبيل وبعث فيها

الرغبة الملحة إلى بناء جامع القرويين بمالها الحلال الذي ورثته من أبيها وزوجها: لم تصرف فيه سواه احتياطاً منها وتحرياً من الشبهة وذلك عام (245) وكانت لم تزل صائمة منذ شرعت في بنائه إلى أن تم وصلت فيه شكراً لله تعالى الذي وفقها لذلك العمل المبرور.

وهذا التاريخ الذي بني فيه جامع القرويين لا شك أنه أقدم من تاريخ بناء الأزهر الذي كان سنة (359) فقول الأستاذ فريد وجدي في دائرة المعارف: "أنه أقدم مدرسة في العالم بعد مدرسة بولونيا بإيطاليا فقد تقدمته بأكثر من أربعة قرون" غير صحيح، لا بالنسبة إلى القرويين كما رأيت ولا بالنسبة إلى كلية بولونيا المذكورة لأن تأسيسها إنما كان سنة (1119م) أي بعد الأزهر بنحو قرن ونصف، إذ أن مقابل تاريخ بنائه من الميلادي يكون حوالي (970) وحينئذ فترتيب هذه الجامعات في القدمة يكون هكذا: القرويين فالأزهر فجامعة بولونيا.

ومن المعلوم أن القرويين لأول بنائها لم تكن على ما هي عليه اليوم من السعة والفخامة فقد زيد فيها كثير، وجدد بناؤها مراراً. وأولى الزيادات كانت في أيام دولة زناتة سنة (307) ثم في أيام عبد الرحمن الناصر الأموي خليفة الأندلس الذي دانت له البلاد المغربية ردحاً من الزمن، وقع تجديد لبناء القرويين وزيادة أخرى فيه وذلك سنة (354).

ثم كان إصلاح جديد في أيام المنصور بن أبي عامر حاكم الأندلس وحاجب الخليفة هشام بن الحكم سنة (388) ثم في دولة

لمتونة في أيام أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين نقض المسجد كله وزيدت فيه زيادة مهمة من جميع جهاته واحتفل في بنائه وزخرفته إلى الغاية وكمل ذلك سنة (538) أي بعد وفاة أمير المسلمين علي بن يوسف بسنة.

ولما ملك الموحدون فاساً سنة (540) خاف فقهاء المدينة وأشياخها أن يتقد عليهم الموحدون النقش والزخرفة التي فوق المحراب لقيامهم بالتقشف والتقلل وقيل لهم أن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي يدخل غداً المدينة مع أشياخ الموحدين لرسم صلاة الجمعة بالقرويين، فأتى الحمامون الجامع تلك الليلة وغطوا على ذلك النقش والتذهيب الذي فوق المحراب وحوله بالورق ولبسوا عليه بالجص ودهن بالبياض فاختفى أثر ذلك ولم يبق ظاهراً إلا البياض.

ونلاحظ هنا أن فقهاء المدينة وأشياخها إنما خافوا انتقاد الموحدين عليهم لما كانوا هم المباشرين لبناء المسجد وزخرفته. ولم يكن ذلك من عمل المرابطين الذين قام عليهم الموحدون. وكذلك كان هذا المسجد منذ تأسيسه من الشعب وإليه، فمعظم هذه الزيادات إن لم نقل كلها كانت مما قام به أفراد من الشعب فقهاء وأئمة وغيرهم. إنما بعد استئذان الحاكم طبعاً.

ولشد ما كانوا يتحرون في المال الذي ينفق على ذلك بل في الأجر والماء والتراب الذي يدخل في البناء فلا يصرفون فيه إلا ما

كان من أصل طيب، وربما اشتبه عليهم مال أحدهم فأدى الأيمان الغليظة على أنه من الحلال الخالص الموروث عن آبائه الذين صار إليهم من عمل شريف. إلى غير ذلك مما تراه مفصلاً عند ابن أبي زرع في القرطاس والجزنائي في زهرة الآس وابن القاضي في جذوة الاقتباس.

وهنا كان قد بلغ الجامع كماله فأتى دور المصالح والمنافع والمرافق الملحقة به من فسقيات وميضئات ومستودعات وخزانات ومقاصير ومدارس وما إليها وأهم ذلك خزانة الكتب التي أسسها به السلطان أبو عنان فارس المريني وأودعها كما يقول الجزنائي: "من الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان واللسان والأذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنوع ضروبها وأجناسها ووقفها ابتغاء الزلفى، ورجاء ثواب الله الأوفى، وعين لها قيماً لضبطها ومناولة ما فيها وتوصيلها لمن له رغبة. وأجرى له على ذلك جراية مؤبدة تكرمة وعناية وذلك في جمادى الأولى سنة 750".

وأسس أبو عنان كذلك خزانة مصاحف احتفل في بنائها وتشييدها بما لم يسبق إليه، وأعد فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة الخطوط، وكلف بها من يتولى أمرها على أحسن الشروط، ثم لم تزل الملوك وعلية الناس توقف الكتب على خزانة القرويين بعد ذلك حتى اجتمع بها من المجلدات العلمية والأدبية والدينية ما لا يدخل تحت حصر ولا يستوفيه عد ولا حساب.

وأما المدارس وهي بيوت الطلبة الملحقة بالقرويين، فإن من أقدم ما بني منها مدرسة الصابرين التي أسسها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حوالي منتصف القرن الخامس الهجري (450) والمرينيون هم سباق هذه الحلبة الذين خلفوا لنا أكبر عدد من المدارس المتقنة الصنع، المحكمة الوضع، لا حول القرويين فقط بل في جميع أنحاء المغرب.

ولما كان كلامنا هنا إنما يساق إلى القرويين فلنذكر بالخصوص مدرسة العطارين التي بناها السلطان أبو سعيد عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق ومدرسة أبي عنان اللتين تعدان قطعتين خالدتين من فن العمارة والنقش والتخريم والتزويق المغربي. وقد تلحق بهما مدرسة الشراطين التي بناها مولاي رشيد من ملوك دولتنا العلوية العلية. أما غير هذه المدارس فإنها وإن لم تكن مثلها في بداعة الشكل وجمال الصنعة إلا أنها لا تقل عنها فخامة بناء، ورحابة فناء.

هذه العناية الفائقة بالقرويين والاهتمام البالغ النهاية بأمره من الشعب ثم من الحكومة في كل عصر وفي كل دولة هو مما يدلنا على ما كان له من مكانة سامية في النفوس منذ عهد تأسيسه وما كان يخص به من الاحتفال والاهتبال دون بقية المساجد الأخرى. وإلا فأخوه وشقيقه جامع الأندلس الذي بنته السيدة (مريم.) أخت أم البنين وشقيقتها لم يظفر بعشر مما ظفر به هو من ذلك، بل أنه ما

لبث أن تخطى على جامع الأشراف الذي أسـسه المولى إدريس ثاني ملوك الدولة الإدريسية ومختط فاس وبانيها سنة (192) فنقلت خطبة العدوة القروية من مسجد الأشراف المذكور إلى القرويين وأصبح هو المسجد الجامع في تلك العدوة كلها.

❖ ❖ ❖

وابتدأ نجم القرويين يلمح في سماء العلم منذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع، وما كاد القرن الرابع يبلغ النصف حتى كان مثل عبد الله ابن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة والذي يعرف بمالك الصغير يشد الرحلة إلى أحد رجاله وهو دراس بن إسماعيل المتوفى سنة 357هـ وفي هذا العهد كان أيضاً أبو جيدة بن أحمد وهو فقيه فاس ومحررها من سطوة عامل المنصور ابن أبي عامر، ولا شك أنه كان أحد أساطين هذه الكلية وممن عملوا على رفعة شأنها وعلو قدرها.

وتتوالى حلقات السلسلة حتى تصل إلى العصر الحاضر مؤلفه من رجال وقفوا حياتهم على خدمة التشريع الإسلامي تحت راية مالك وأصحابه فبلغوا به الغاية التي ما بعدها غاية في الكمال وطارت لهم شهرة مطبقة أرجاء العالمين الشرقي والغربي، فما منهم إلا إمام فتوى ومجتهد مذهب مثل الفقيه أبي عمران الفاسي المتوفى سنة 430 والفقيه أبي محمد صالح المتوفى سنة 631 والفقيه راشد الفاسي المتوفى سنة 675 والفقيه أبي الحسن الصغير المتوفى سنة

719 والفقيه أبي عمران العبدوسي المتوفى سنة 776 والفقيه القوري المتوفى سنة 872 والفقيه المشارك أبي عبد الله بن غازي المتوفى سنة 917 والفقيه أبي علي بن رحال المتوفى سنة 1140 والفقيه الرهوني المتوفى سنة 1230 وغيرهم.

وفي الحقيقة أن أكثر الجهود في الكلية في كل عصر كانت موجهة إلى هذه الناحية من التعليم ومعظم إنتاج رجالها كان في هذا العلم، علم الفقه وما إليه على مذهب مالك رحمه الله حتى ليصح القول أن أهل كل بلاد لم يخدموا مذهبهم بقدر ما خدمه أهل المغرب وإن المذهب المالكي لم يصل إلى ما وصل إليه من الخصب والنماء والنضوج، حتى إن أتباع غيره من المذاهب ربما اضطروا إلى الأخذ عنه والاقتباس منه كما في بعض قوانين المحاكم الشرعية بمصر إلا بفضل رجال القرويين وما أبدوه من الهمة الصادقة في هذا السبيل.

ولم يصل الاشتغال ببقية العلوم الإسلامية بالقرويين إلى درجة الاشتغال بالفقه ولكنه لم يقصر عنها كثيراً. فكانت علوم الحديث والتفسير والأصلين مما لم ينقطع تدريسه في الكلية في أي عصر ولو في العصور المتأخرة حين كان بعض هذه العلوم في بلاد أخرى لا يقرأ إلا للتبرك بسرده. وكانت هذه الدراسة مجال البحث والاستنتاج وفرصة المحاضرات القيمية في التربية والتهذيب. وحسبك أن تقرأ وصف مجلس من مجالس العلامة أبي القاسم

العبدوسي الذي قضى التونسيون العجب منه في ذلك الوقت وأن تعلم أن ابن الصباغ أحد رجال هذه الجامعة أملى على حديث "يا أبا عمير، ما فعل النغير؟" 400 فائدة!

ومن ثبت أسماء النابهين في هذه العلوم وأسماء مؤلفاتهم تدرك مبلغ القيام الذي كان لأهل القرويين عليها. ونحن نخص بعض البعض ممن نعرفهم ونعرف انقطاعهم في الكلية الذي تنقطع دونه الأطماع ولا يمنعنا من التبسط في شرح ذلك إلا إرادة الإيجاز وخوف الإملال. وهؤلاء مثل العالم الصوفي الجامع علي بن حرزهم المتوفى سنة 550 والمتكلم أبي بكر السلالجي صاحب البرهانية في علوم الاعتقاد، كان يعد في طبقة أبي المعالي الجويني توفي سنة 564 والمفسر المحدث ابن عبد الجليل القصري المتوفى سنة 615 والمفسّر الأصولي ابن عبد الله المزدغي المتوفى سنة 655 والمحدث الراوية ابن رشيد السبتي المتوفى سنة 692 والعالم الصوفي الجامع الشيخ زروق المتوفى سنة 899 والحافظ أحمد بن يوسف الفاسي المتوفى سنة 1021 والحافظ أبي العلاء العراقي المتوفى سنة 1183 والمفسر المتكلم الشيخ الطيب بن كيران المتوفى سنة 1227 ولا ننسى أن ننبه على ما كان لعلوم القراءات من شأن كبير في الكلية.

فقد كانت العناية بها شديدة في كل عصر وكان يتخصص فيها كثير من العلماء، فضلاً عن مشاركة جمهورهم فيها لأن أوائلها كانت تتلقى في الكتاتيب القرآنية التي ما كان يتولاها إلا كبار الأساتذة المتحققين بتلك العلوم التي كانت تدرس في القرويين وفي جميع المغرب. ويكفيك أنه كان لطلبتها مدرسة خاصة بهم هي مدرسة السبعيين (أي القراء بالروايات السبع) الواقعة بإزاء مدرسة الأندلس والتي كانت قد تلاشت وأغلقت منذ مدة، ثم هي الآن قيد الإصلاح والترميم.

ومن نبغاء خريجي القرويين في هذه العلوم ميمون الفخار صاحب التحفة والدرة وغيرهما المتوفى سنة 716 وابن بري صاحب الدرر اللوامع المتوفى سنة 818 وسواهم كثير.

وأما علوم اللغة والأدب فقد ظلت الكلية رافعة رايتها منذ انبثاق فجر النهضة العلمية في المغرب على عهد المرابطين إلى يوم الناس هذا ومر عليها زمن لم يكن ينافسها معهد آخر أياً كان في آداء رسالة الأدب العربي والقيام على حفظ تراثه من الضياع وذلك حين يقول الشيخ محمد بيرم الخامس في كتابه صفوة الاعتبار: "لعمري إن صناعة الإنشاء في الدول باللغة العربية كادت تكون الآن مقصورة على دولة مراكش" وقد درج في الكلية من فطاحل علماء اللغة وكبار أهل الأدب ما بقي فخراً لها على مر السنين والأعوام مثل

الشاعر الأديب يحيى بن الزيتوني الذي قهر ابن زيدون في بلاط ابن عباد والشاعر النابغة ابن حبوس الفاسي والعلامة ابن رقته من ذرية المهلب بن أبي صفرة كان حجة في الأدب وله كتاب في الشعر والأنساب توفي سنة 606 والشاعر المشهور أبي العباس الجراري الذي يعد من مفاخر هذه العدوة وصاحب كتاب صفوة الأدب وديوان العرب المعروف بالحماسة المغربية الموجود مختصره في مكتبة بالاستانة توفي سنة 609 بعد وفاة المنصور الموحدي مخدومه بنحو 14 عاماً خلاف قول ابن خلكان أنه توفي في آخر أيامه، والشاعر الفيلسوف أبي العباس الجزنائي الذي كان محفوظه من شعر المحدثين فقط عشرين ألف بيت توفي سنة 749 والنحوي أبي عبد الله ابن آجروم المشهور المتوفى سنة 728 والنحوي اللغوي أبي زيد المكودي المتوفى سنة 807 والنحوي أبي العباس القدومي المتوفى سنة 992 والأديب الشاعر الناثر عبد العزيز الفشتالي مفخرة المغرب في عصره المتوفى سنة 1032 والنحوي محمد المرابط الدلاءي المتوفى سنة 1089 والشاعر الأديب ابن زاكور شارح ديوان الحماسة والقلائد وصاحب كثير من الكتب الأدبية القيمة المتوفى سنة 1120 والشاعر الرقيق ابن الطيب العلمي صاحب الأنيس المطرب المعروف المتوفى سنة 1134 وإمام أهل

اللغة في عصره أبي عبد الله محمد بن الطيب الصميلي صاحب الحاشية الفريدة على القاموس التي استقى منها كثيراً السيد مرتضى الحسيني صاحب التاج وعنه يعبر بشيخنا. وله عشرات الكتب غيرها في اللغة والأدب. توفي سنة 1170 إلى غير هؤلاء.

بقي الكلام في العلوم الفلسفية بمعناها القديم الذي يشمل الرياضيات والطبيعيات. وهذه قد كان لها أيضاً ماض زاهر في الكلية:

فمنذ انضمام الأندلس إلى المغرب في أيام المرابطين جعل الاحتكاك بأهل الجزيرة يفعل فعله في توجه أنظار أهل هذه البلاد إلى الأخذ بأسباب تلك العلوم. وكان قد انتقل إلى هنا - بانتقال الدولة كثير من علمائها المتحققين بأجزائها فتهافت عليهم طلبة القرويين يقتبسون من مشكاتهم ويأخذون بأدواتهم، فما لبثوا أن شاركوهم في جميع تلك التعاليم ونظروا فيها نظرهم ونبغ منهم أفراد كثيرون كان لهم قيام حسن على فنون من العلم الطبيعي والرياضي والإلهي وآثار نفيسة في جميع ذلك وما برحوا عاملين على بثها ونشرها والتواصي بتبليغها وتلقينها لمن يأتي بعد جيلاً فجيلاً حتى تأدت بقية منها إلى العصر الحاضر في مظهر من البلى والقدم لا يرضى أنصارهم ومحبيها وإن كان ما تحت ذلك المظهر لا يزال يحوي كثيراً من الفوائد القيمة والنظرات العلمية الصحيحة.

فمن رسل الثقافة العلمية من أهل الأندلس إلى المغرب أبو بكر بن باجة الفيلسوف والعالم الطبيعي والرياضي والموسيقي والطبيب

المشهور. وأبو العلاء بن زهر الطبيب البارع المدقق في تشريح الأمراض وابنه أبو مروان صاحب كتاب التيسير في المداواة والتدبير والذي أثر تأثيراً بليغاً في الطب الأوروبي بترجمة كتبه وهو ميت فكيف يكون تأثيره في المغرب وهو حي. وأبو الوليد بن رشد الذي ما أثر أحد تأثيره في نهضة العلوم بأوروبا. وقد كان في بلاط الخليفة الموحد الثاني يوسف بن عبد المؤمن الذي بالغ في رعايته وإكرامه وهو الذي حمله على شرح كتب أرسطو وتلخيص فلسفته.

ومن الأفراد النابغين في هذه العلوم من أهل البلاد الذين درجوا من الكلية وتخرجوا فيها العلامة ابن الياسمين كان فرداً في العلوم الرياضية من هندسة ونجوم وعدد وله أرجوزة في الجبر قُرِئتْ عليه بإشبيلية سنة 587 وكان هو الذي نشر ذلك العلم بها. ويوسف بن سمعون الطبيب والرياضي الكبير قرين موسى بن ميمون وصاحبه بمصر واجتمع وإياه على إصلاح هيأة ابن أفلح الأندلسي. وهذا وإن لم يدرس بالقرويين، لكونه يهودياً، إلا أن تخريجه على يد علمائها لأنه من أهل فاس وبها درس كما عند ابن القفطي.

وابن البناء العددي العلامة الرياضي والفلكي والطبيب المشهور له موضوعات كثيرة في الحساب والجبر والهندسة والفلك وغير ذلك وتفوق على كثير من علماء الرياضة قبله سواء في المشرق أو المغرب وخاصة في حساب الكسور توفي سنة 721 وابن أبي الربيع

اللجائي العالم الرياضي الفلكي المتفنن له أعمال متفوقة وآلات نافعة في علم الهيأة وكانت وفاته سنة 773 والجاديري صاحب روضة الأزهار في علم الهيأة المتوفى سنة 818 وأبو القاسم الوزير الطبيب والعالم النباتي المشهور صاحب حديقة الأنوار في شرح ماهية العشب والأزهار كان حياً سنة 994 وأبو القاسم الغول العالم الرياضي والطبيب مؤلف حافظ المزاج ولافظ الأمشاج المتوفى سنة 1059 وابن حميدة المطرفي صاحب المقرب في الهيأة المتوفى سنة 1001 وابن سليمان الروداني الفيلسوف الرياضي البارع له أعمال وآلات لم يسبق إليها في الفلك توفي سنة 1095 وعبد الرحمن الفاسي العلامة الطبيعي والرياضي والفيلسوف مؤلف الأقنوم في مبادئ العلوم تكلم فيه على زهاء 150 علماً واستوعب نظرياتها واستوفى حدودها فهو من الموسوعات العلمية العظيمة الفائدة كما له غيره من الكتب في كل من الحكمة العملية السياسية والنظرية الطبيعية فضلاً عن كتب الفقه والحديث توفي سنة 1096 وعبد الوهاب أدراق الطبيب الموفق العلاج صاحب الذيل على أرجوزة ابن سينا وغيره من الكتب الموضوعية النافعة توفي سنة 1159 وعبد القادر بن شقرون الطبيب صاحب الشقرونية وغيرها في الطب وكان معاصر الأدراق المذكور قبله - في كثيرين غير

هؤلاء لم نشر إلى أسمائهم اختصاراً لحصول المقصود من الدلالة على ما قامت به هذه الجامعة في الماضي من نشر الثقافة العلمية وآداء رسالة المعرفة كما حملت.

ولهذا لا يستغرب أن يؤمها الطلبة من أقصى بلاد أوروبا وغيرها فهناك في تلك العصور التي تدعى عندهم - عن حق - بالعصور المظلمة لم يكن قد تقرر للعلم مداول بعد. وقد اشتهر كثير ممن درس فيها من الأجانب وكان لهم تأثير قوي على العقلية الأوروبية في ذلك الحين ومنهم البابا سلفستر الثاني الذي كان أول من أدخل إلى أوروبا الأرقام العربية التي لا تزال مستعملة في المغرب إلى الآن.

نظام الدراسة في الكلية

ونظام الدراسة في القرويين لا يختلف عما هو عليه في الجامعات الإسلامية الأخرى كما لم يختلف الآن عما كان عليه منذ الأزمان المتطاولة:

يجلس الأستاذ فيحلق عليه الطلبة ويأخذ في إملاء درسه الذي يكون في الغالب تفسيراً (لمتن) وتقريراً لأقوال شراحه ونظراً فيما بينها من الاختلاف وقد ينجر به الحديث إلى الخروج عن الموضوع، إنما إذا كان ضليعاً في مادته واسع الاطلاع عظيم المحفوظ فلا خوف على الطالب من ذلك الخروج بل إنه ليستفيد منه ما لا يقدر له أن يجده في كتاب أو يهتدى إليه بمجرد فهمه.

وإذا كان الطالب ممن لازم الحضور بمجلس أستاذ وظهرت عليه مخايل النجابة فإنه يحق له أن يتقدم إلى ذلك الأستاذ بطلب إجازة يكون لأنه أهم ما أنشأه في حياته الدراسية بمثابة أطروحة (*Thése*) تتعرف منه درجته في التحصيل.

وليس لأوقات الدراسة ضابط معين بل النهار كله من طلوع الفجر إلى المغرب وقت صالح للتدريس وتزاد عليه الحصة الواقعة بين العشاءين أيضاً. والدرس قد يمتد إلى الساعتين والثلاث بحسب قوة الأستاذ واستعداد التلاميذ والمادة المدروسة. وتدريس العلوم

العقلية والنقلية في الصباح والمساء على السواء إلا أن الغالب تخصيص الحصة التي بين العشاءين بالدروس الدينية والوعظية من التفسير والحديث والفقه لحضور العامة لها. إذ يكون الوقت وقت فراغ وانصراف عن الشغل وكذا يقال في الدرس الذي يكون عقب صلاة الصبح مباشرة.

وأيام العطلة هي في الغالب الأخمسة والجمع وأسابيع الأعياد وأيام المواسم، على أن منهم من يغتنم فرصة هذه الأيام فيقرأ فيها فنوناً متنوعة في كتب صغيرة مما يتهيأ ختمه في مدة قريبة.

ومواد الدراسة لا تنضبط بعدد ولا تستقر على حال، على أن الدروس الدينية واللغوية لم تنقطع في الجامعة في وقت من الأوقات، ودائماً تكون لها الأغلبية في حين أن العلوم العقلية منها ما لا ينهض إلا بمناصرة السلطة التي يكون هواها مع هذا العلم أو ذاك. كما حصل على عهد الموحدين من إحياء علوم الفلسفة والأخذ بضبع أهلها لما كان من ميل يوسف بن عبد المؤمن (مأمون المغرب) لها وتعلقه بها، ومنها ما يروج وينفق إذا وجد من يحسن القيام عليه والدعوة إليه من أهله المتحققين به المتفرغين له كالنهضة العظيمة التي كانت لعلوم الرياضة على عهد المرينيين والتي أوجدها أفراد من العلماء كانوا في عصرهم منقطعي النظير في تلك العلوم.

ثم طلبة القرويين قسمان (أهليون) ونعني بهم سكان فاس وما زال أهل فاس من أحرص الناس على طلب العلوم الدينية واللغوية

في القرويين (وخارجيون) وهم الواردون على فاس من مختلف المدن والقرى المغربية بل والجزائرية والصحراوية وعددهم يتراوح اليوم بين 500 و700 طالب. ومحل سكناهم المدارس التي سبق الكلام على بعضها ويتناولون من الأوقاف كمؤونة رغيفاً يومياً ولبعضهم جرايات وقفية لا بأس بها يأخذونها مقابل بعض الأعمال الدينية التي يقومون بها في المساجد الأخرى والقرويين نفسها.

وكان للطلبة قبل هذا الإبان صولة كبيرة بحيث إن السلطة لم تكن تتدخل في شؤونهم وإنما يرجعون في فصل خصوماتهم إلى مقدميهم أو إلى الأساتذة.

ومما يدل على مزيد الاعتبار الذي كان لهم سواء عند الشعب أو الحكومة تلك النزهة الربيعية التي كانوا يقيمونها كل سنة على ضفاف (وادي الجواهر) خارج فاس ويشارك فيها جميع طبقات الشعب والحكومة نفسها، فيرسل السلطان ممثله او يحضر بنفسه ويهدي لسلطان الطلبة هدية نفيسة في مهرجان حافل بينما يقدم الطلبة على لسان سلطانهم طلبات مهمة إلى السلطان وقد يكون فيها العفو عن مجرم والرضى عن قبيل ونحو ذلك فتنفذ بسرعة ويرجع الطلبة مفعمين بالسرور والحبور. وهذه النزهة لا تزال تقام إلى اليوم لكن لم يبق لها الاعتبار السابق.

وإذا نظرنا إلى تاريخ العلوم في القرويين نجد أنها قد اجتازت بثلاث مراحل مهمة.

(الأولى) عند قيام الدولة الموحدية في منتصف القرن السادس حيث انتصر مذهب الأشعرية في الاعتقاد على مذهب السلف الذي كان عليه أهل المغرب منذ القدم، فدخل علم الكلام على طريقة الاشعري بما يستلزمه من نظريات الفلسفة ومقدماتها إلى القرويين وتوطد أمره فيها منذ ذلك العهد إلى يوم الناس هذا.

(الثانية) عندما أعلن يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين الحرب على علم الفروع وعمل على نشر السنة بالترغيب والترهيب وأحرق كتب الفقه من المدونة والتهذيب والواضحة وغيرها فانصرف الناس إلى علوم الحديث والتفسير وإحياء ما اندثر من أصولها وكان ذلك فاتحة عهد جديد في الدراسات الإسلامية بالقرويين.

(الثالثة) عندما أصدر السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي منشوره الإصلاحي الهام إلى الشيخ التاودي بن سودة وكان رأي ما آلت إليه الحركة العلمية بالقرويين من الفتور والاضمحلال فساءه ذلك المآل وعمل على بعثها وتجديدها بما أثر في حياتها المستقبلة بعد ذلك تأثيراً بليغاً.

هذا مجمل نظام القرويين والحالة العامة التي كانت عليها إلى انقضاء الثلث الأول من القرن الرابع عشر الحاضر. وبعد ذلك في عام 1332 دخلت الكلية في طور الإصلاح والتنظيم الحديث إذا أصدر السلطان مولاي يوسف رحمه الله أمره بتأسيس مجلس للنظر في شؤون القرويين ووضع برنامج للدراسة فيها. فتألف المجلس

ووضع البرنامج وكان من أهم ما اشتمل عليه مما يعد حدثاً جديداً في تاريخ الكلية، تقسيم منهاج الدراسة إلى ثلاثة أقسام: ابتدائي وثانوي ونهائي، وتقرير نظام المراقبة والامتحانات ولكن تنفيذ هذا البرنامج كان من العسير جداً، لمخالفته لمألوف الناس الذين يقفون كثيراً مع العوائد وهكذا بقي ما كان على ما كان.

وحدث أن السلطة كانت تستخدم بعض الشخصيات البارزة من العلماء في مختلف المصالح والبعض الآخر كان ينتثر عقده بالموت فلم يشعر الناس إلا وجامع القرويين يكاد ينعق فيه البوم والغراب لخلوه من أهل الكفاءة والجد الذين يعمرونه بالدروس النافعة الدائمة ولا يبغون على ذلك ثواباً ولا أجراً. فقلقت الأفكار وساءت الظنون وكثرت المساعي التي ترمي إلى الإصلاح العملي والتنظيم الجدي، فما كان إلا أن صدر الأمر الملكي المحمدي الكريم بذلك ونفذ في عام 1350 وهو الذي عليه العمل الآن.

ينص هذا الأمر على تقسيم منهاج الدراسة إلى ثلاثة أقسام كالسابق ويزيد عليه بجعل القسم النهائي على نوعين: ديني وأدبي، ويحصر مدة الدراسة في (12) سنة منها 3 للابتدائي و6 للثانوي و3 للنهائي. وفضلاً عن تقريره لجميع العلوم الشرعية وآلاتها التي كانت تدرس في الكلية من قبل، فإنه أضاف إليها علوماً جديدة كالتاريخ والجغرافية والهندسة. وجعل عدد الأساتذة النظاميين (32)

مبدئياً وعين لهم أجوراً لا بأس بها وحدد مدد العطلة وضبط أمر امتحانات النقل والتخريج وبين نتائج النجاح وما يخوله نيل الشهادة في كل من الأقسام الثلاثة إلى غير ذلك.

ومنذ جريان العمل بهذا النظام والانتقادات توجه إليه من كل طبقة من الطلاب وأحق هذه الانتقادات بالالتفات أن غالب المواد أسندت إلى من لا يحسنها وإن كتب الدراسة لم يدخل عليها أي تعديل فالفقه مثلاً لا زال يدرس في مختصر الشيخ خليل ذي الشروح العديدة والحواشي الكثيرة وكذا النحو لا زال يدرس في الابتدائي بشرح الأزهري للأجرومية، والألفية أبدل شرح المكودي لها بشرح ابن الناظم وليس بذلك.

على أن ما لا يصح إنكاره من محاسن هذا النظام، فضلاً عن ضبطه لأوقات الدراسة هو إحياؤه لعلوم الحديث والتفسير وإدخاله لبعض العلوم التي كان الطالب القروي محروماً منها كالتاريخ والجغرافية.

فأما كون المواد تسند إلى غير أهلها فالحقيقة في ذلك أن بعض العلوم لم يكن لأهل القرويين بها مساس مع ما انضم لذلك من إبعاد نبغاء أهل العلم والأدب عن الكلية وأخذهم للوظائف الحكومية، فواجب أن تجلب الحكومة بعض أساتذة تلك العلوم الجديدة من معاهد الشرق بينما ترسل بعثات من أبناء القرويين للتخصص فيها وتدريسها عند عودتهم. كما يجب أن يعاد أولائك

الأفاضل المقصون عن الكلية إلى حظيرة التعليم، فمن الجور أن يضيع عمرهم في غير ما خلقوا له ويضاع معه مستقبل الطلبة الذي نحن عليه جد حريصين.

وأما مسألة الكتب فإن الزمان كفيل بتعديلها على أحسن الوجوه، ومن الإنصاف أن نعترف أنه لم يحن وقت تسويتها بعد على ما ينبغي لما نرى عليه بلادنا من التأخر المزري في وسائل النشر وصناعة الطبع.

ومن حسنات هذا الإصلاح تنظيم خزانة القرويين والاهتمام بجمع كنوزها وذخائرها وحفظها من التلف ورد اليد العادية عنها. إذ طالما عبثت بنفائسها وأعلاقها الثمينة على ممر الأجيال واختلست كثيراً منها في غير حياء ولا مخافة - والله حسيب من بدل أو غير - كما يقولون: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [الشعراء: 227].

هذا ولنا نظر في إصلاح القرويين نبديه هنا ولو لمجرد المناسبة فهو أقرب تناولاً وأقل كلفة وأنسب حالاً من كل إصلاح غيره. وذلك أننا نرى أن تخصص الكلية بالدراسات الإسلامية المحضة وما يعين عليها من علوم القرآن بما فيها القراءات التي قدمنا ما كان لأسلافنا من العناية بها والحديث والفقه والأصول ووسائل ذلك من النحو واللغة والبيان والمنطق والحساب والهيئة ونحوها على أن تكون دراسة هذه الأشياء إنما هي بحسب التبع لتلك من أجل أنها لا يتوصل إلى المطلوب إلا بها، ولذلك كان أشياخنا رحمهم الله

يسمونها علوم آلالات والمقصود العلوم الدينية التي نؤمل من وراء دراستها على هذا النمط والانقطاع لها بهذه القابلية أن نخرج رجالاً متضلعين فيها. أشد التضلع متقنين لها أحسن الإتقان فنعيد عهد مالك والشافعي والبخاري وأحمد بن حنبل وأبي منصور الماتريدي والاشعري وابن حزم وأبي بكر بن العربي وابن تيمية وابن حجر وأضرابهم.

وذلك في حين توجه الرغبة واشتداد الطلب وتظافر الجهود على تأسيس جامعة عصرية *(Universite)* تتكون من ثلاث كليات إحداها للأدب والثانية للطب والثالثة للعلوم. فالتي للأدب تعوض بها تلك الدراسة الناقصة العقيمة التي حذفناها من برنامج القرويين إذا أصبح من المسلم أن الأدب لا يحيا بتلك الطريقة ولا ينتظر أن يكون له مستقبل في هذه البلاد ما لم يوجه الاتجاه المطلوب الذي تقتضيه روح العصر وامتداد آفاق البحث إلى ما لم تكن عليه في الأزمان الغابرة. واللتان للطب والعلوم نسد بهما مفاقرنا في الحياة العلمية العملية العصرية التي ما فتئنا نسمع التبشير بها والوعد باستقبالها منذ ربع قرن فأكثر ولا نرى لها أثراً.

وبقطع النظر عن مسألة القرويين نحن لا نرى لنا بداء إن كنا نريد نهضة حقيقية مبنية على أساس متين من الإصلاح الاجتماعي الشامل. من إنشاء هذه الجامعة التي يجب أن نعنى بأمرها عناية خاصة ونهتم بشأنها الاهتمام كله.

ولـذلك فـنحن نتوجـه بطلبنـا هـذا إلـى سـدة ملكنـا المحبـوب السلطان سيدي محمد الذي نحمد الله على شفائه من مرضه وحفظه لأمته التي لها فيه آمال كبار ومتمنيات جسام لا طمع لها في غيره بتحقيقها وإقرار عينها بها. ومن جملتها الجامعة التي تشرف المملكة السعيدة وتغني كثيراً من أبناء المغرب عن تكبد مشاق السفر والغربة في طلب العلم في بلاد الأغيار. وما ذلك على همته العلوية بعزيز.

عبده المغرب[1]

في عام 1325 عاد الشيخ أبو شعيب الدكالي إلى وطنه المغرب، من رحلته العلمية الطويلة في بلاد المشرق التي أراد أن يحيا بها عهد يحيى بن يحيى الليثي ومحمد الأصيلي ودراس بن إسماعيل وأبي عمران الفاسي. وكان قد أشبع نهمته من العلم وقضى حاجته من المعرفة فحل بين قومه حلول الخصب بعد الجدب والأمل بعد اليأس، إذ كان رسول حياة علمية صحيحة تنفخ فيهم روح اليقظة والنهوض وتبعثهم على نبذ الكسل والخمول وراءهم ظهرياً.

في ذلك التاريخ كان الشيخ محمد عبده قد مات بعدما أدى مهمته الإصلاحية خير آداء، وطبقت دعوته التجديدية كامل بلاد السلطنة العثمانية حتى القطرين الشقيقين تونس والجزائر.

أما المغرب العلوي فقد بقي بمعزل عن تلك الحركة التي كان مصلح الشرق لا يفتأ يبثها في جميع الأنحاء ولم تبلغه تلك الدعوة على ارتفاع صوت صاحبها اللهم إلا بعض كلمات، أصح ما يقال

---

(1) كتبت للجنة تأبين الشيخ بالرباط.

فيها أنها كانت نتائج بدون مقدمات ودعاوى بغير بينات. ولهذا ما كان من علماء المغرب حينذاك إلا رفضها وردها والحمل عليها وعلى صاحبها بكل شدة وبكل إخلاص أيضاً[1].

وكانت بلاد المغرب المجيدة، التي لبثت محافظة على قوميتها واستقلالها المقدسين من الطغيان التركي دون سائر البلاد الإسلامية، أبت أن تخضع لدعوة مهما كانت مخلصة وتستجيب لنداء وإن كان شريفاً إلا إذا انبعثت تلك الدعوة من قلبها وأرسل ذلك النداء من صميمها ترفعاً عن المشي في ركاب الغير وتمنعاً من إلقاء القياد بيد كل دليل، إلا الدليل المعروف العين والاسم العارف بالمعلم والمجهل فصبرت قليلاً حتى بعث الله لها مصلحاً من أنفسها ومجدداً من بنيها هو شيخنا أبو شعيب.

كان الشيخ قد طوف بلاد المشرق ورأى الحركات الناشئة فيها من سياسية واجتماعية ودينية، وهو يعلم ما خلف في بلاده المغرب من تدهور وانحطاط وجمود وخمود. فلما رجع رفع عقيرته بدعوة إصلاحية عامة غايتها إيقاظ الأمة من غفلتها وتنبيهها إلى واجباتها الدينية والدنيوية والارتفاع بها عن مستوى الخالفين، فما كان من الأمة إلا أن أقبلت عليه إقبال الظمآن على الماء وتلقت قوله بالقبول لا سيما وقد كان وعاء مليء علماً وشخصية مؤثرة بروحها وأخلاقها

---

(1) إشارة إلى ما كتبه العلامة الوزاني وغيره في الرد على الشيخ محمد عبده.

ومظهرها، وأمتنا - والحمد لله - ما زالت تدين الله بتعظيم العلم وأهله وترفع مقامها وتجل أقدارهما. وكذلك ما زالت تخفض من جناحها لذوي الفضل والكمال وتلين من جانبها لهم في كل زمان ومكان.

وهكذا أصبحت القلوب مجمعة على حب الشيخ أبي شعيب واحترامه سواء من العلماء أو غيرهم، من الشيوخ أو الشبان فلم يكن يخالف عليه أحد لا من هؤلاء ولا من هؤلاء وحصل على رياسة العلماء الحقيقية التي لم يحصل عليها أحد بالمغرب منذ وفاة الفقيه كنون الكبير في أول هذا القرن.

أما العلماء ففضلاً عن أنه لم يكن فيهم من يفري فريه فإنهم تعرفوا في دعوته روح شيخهم كنون ومنزعه الذي ما حادوا عنه إلا لقصور في الباع، وضعف في الطباع، وأما الشبان وغيرهم فقد طالعهم بما كانت تتطلبه نفوسهم المتوثبة إلى النهوض الراغبة في التجدد، فلذلك ألقى العلماء السلاح للشيخ وعقد الشبان الخناصر عليه ولم تكن إلا فجوة قليلة حتى وجدت هذه الحركة العلمية المباركة وهذه الحركة الإصلاحية الموفقة واستيقظ المغرب وتنبهت مشاعر أبنائه للخير، فكان موقظه ومحرك عزماته الساكنة هو شيخنا أبو شعيب.

إذن فهو عبده المغرب، وهو شيخه الإمام، ولئن اختلفا في بعض الأوصاف فقد اتفقا في أصلها والغالب عليهما منها وهو الإصلاح والتجديد والإيقاظ والتنبيه. أما إن قلت أن محمداً عبده

كان كاتباً مجيداً وخلف في عالم التأليف أثارا مهمة لا زالت مما تزين به الخزائن وتعد من أنفس الذخائر، فإننا نقول أن أبا شعيب كان بحراً في علمه لا ينتهي إلى ساحل - وإن كان لكل بحر ساحل - وقد علم أبو شعيب فنوناً لم يكن لمحمد عبده فيها حظ ولا نصيب، فهذه في مقابلة كتابته وإنشائه.

وأما الكتب فليس بلازم أن يكون للعالم كتباً وأن يخلف آثاراً إذا قام بمهمة التعليم والبلاغ ولم يترك واجب النصح والإرشاد، فشيخ الحكماء وأبو الفلاسفة سقراط العظيم لم يؤلف ولا كتاباً واحداً، إلا أن تلاميذه وتلاميذهم من أفلاطون وأرسطو وغيرهما فيهم الكفاية وكذلك نحن ألسنا كلنا كتباً وآثاراً لفقيدنا العظيم، فكل ما نخطه بأيدينا ونرقمه في صحائفنا إنما هو نفحة من نفحات أشياخنا ونفثة من نفثات صدورهم رحمه الله عليهم. ولله در البصيري إذ يقول:

والمـــرء فـــي ميزانـــه اتباعـــه

إبليس يتفقد جنده[1]

أصبح إبليس منقبض النفس ضيق الصدر يكاد الغم يخنقه واللعنة تتوارد عليه من الأرض والسماء، فهو يتململ من شدة الحرج ولا يملك أن يخفف من ألمه ولو بالتوجع والشكوى.

ثم التفت فرأى عرشه منكوساً وإيوانه متصدعاً قد آذن بالانهيار وسوء المصير فصعق صعقة الموت حتى لكادت الدنيا تبشر بانقضاء حياة رسول الجحيم، فيعم أهلها السرور والهناء لولا ما سبق له في الأزل من الأنظار إلى الوقت المعلوم.

وبعد غمرة من العذاب قام يتهالك على نفسه ويتعثر في مشيه حتى أتى مكة فطاف بأرجائها خزياناً حقيراً ثم صعد على جبل أبي قبيس وزعق زعقة هائلة دوت في أجواء الفضاء كالرعد القاصف فتسامع بها أبناؤه من مردة الجان والشياطين فأتوا إليه من كل صوب يهرعون متسلقين الجبل من جميع جهاته كأنهم المعيز السائمة وقد ركب بعضهم ظهور بعض من كثرتهم ورغبتهم في الدنو منه.

---

(1) كتبت لإحدى لجن الاحتفال بالمولد النبوي بفاس.

ولما وصلوا إلى حيث كان إبليس جاثماً كالنمر الهائج تقذف عيناه بالشرر وينبعث لهيب النار من فيه، جعلوا ينحنون أمامه لتحيته ويومئون إلى الأرض بقرونهم ويبصبصون بأذنابهم.

ثم تقدم أكبر أبنائه وهو المسمى "ثبراً" وكان جسيماً بطيناً بارز الوجنتين مشقوق الأنف تحسبه بأنفين فكان وجهه مشجب ذو أربعة مناشب وقال بصوت أشبه بالنخيف: "ما لا بينا ثائراً مغتاظاً كأنما طرد من السماء الساعة، وقد صاح هذه الصيحة المنكرة التي لم نسمعها منه ليلة طوى ولا يوم هز الجذع؟!..." فتحرك إبليس للكلام حركة زلزل منها المكان وقال بصوته الأجش المرعب: "ويلكم يا أبناء النقمة، وأحلاس الظلمة قد ذهب ملككم، ودالت دولتكم، وغلبتم على أمركم، وحيل بينكم وبين ما تشتهون وليس لكم بعد اليوم إلا الخزي والعار، والذلة والصغار، والأغلال والأصفاد، والحرس الشديد والأرصاد".

فلما سمع الشياطين من أبيهم هذا الكلام حاصوا حيصة حمر الوحش وعلا عزيفهم وقالوا بصوت واحد: "ماذا؟ ما الذي حدث؟" وبدت على وجوههم علامات الاهتمام والفزع.

فقال إبليس: "ها قد ولد محمد" النبي الذي يبعث بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فيحيي مائت السنن، ويجدد مراسم الشرائع ويصحح حسنات المؤمنين. ولن يقبض حتى يقيم الملة العوجاء" قال ذلك وتفرس في وجوههم فرأى مخيلة الاستخفاف

وعدم المبالاة تبدو عليهم. ولما سكت أجابوا جميعاً: كلاّ! لا يدال منا لآدم، إن كان أبناء الخطيئة هم الذين تخاف علينا فإننا لا نقيم لهم وزناً".

وقال ثبر: "يا أبانا طب نفساً، وقر عيناً، فإن بني آدم كانوا أمماً عديدة وكانوا فيما مضى أشد وأقوى منهم فيما غبر، فاستوفينا جميع الأمم وما غلبونا ولا بد أن نستوفي الأمة الباقية ونغلبها" فقال إبليس: وكيف ذلك وهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله وحده؟" فأجاب الشياطين جميعاً: "نأتيهم من باب الرياء فإنه الشرك الأصغر ولا ينفع معه علم ولا عمل" قال: "فإنهم يغلبونكم" قالوا: "بماذا؟" قال: "يعتصمون بالله وحده" فقالوا: "أن اعتصموا بالله وحده، أتيناهم من باب التهاون بالصلاة ومنع الزكاة والظلم والجبن واتباع الهوى فإنهم يهلكون لا محالة".

فقال إبليس: الآن خف عني بعض ما أجد ولكن لا تظنوا أن مهمتكم في هذه الغاية من السهولة، فإن الله تكفل لهم أن يبعث إليهم بين حين وآخر مجدداً كبيراً ومصلحاً خطيراً يهديهم سواء السبيل ويقيم من أودهم فهم يسيرون دائماً في استقامة طريق ونور هدى" قالوا: "فإننا نتكفل لك أن نجعلهم طرائق قددا بأن نقيم فيهم مجددين زيوفاً ونجعل لكل واحد منهم أتباعاً وأنصاراً نلقي في وهمهم أنهم المحقون وسواهم مبطل وبذلك نصرفهم عن المجدد الحقيقي فلا يكون له كبير أثر فيهم".

فأظهر إبليس لهم الرضا والاطمئنان ونادى أولاده لصلبه: ثبراً، والأعور، ومسوطاً وداسماً، وزلنبورا. فقال لثبر: "أي ولدي البكر ثبرا، إنني من نجاح هؤلاء الغلمة لفي شك مريب. فأحصر جميع أملي فيك أنت المكلف بزحزحة المؤمنين عن إيمانهم وتشكيكهم في عقيدتهم، فإن الإيمان هو الأصل الذي إذا سلم لصاحبه لم يضره بعده شيء. وأذكر أنني إنما سميتك ثبراً لثبور من وقع في حبائلك ولم ينجح من مكائدك. احرص على أن تحول بينهم وبين السماء وتجعل اتصالهم إنما هو بهذه الوسائط التي يسمونها شيوخاً وعظم منزلتهم لديهم وأكبرهم في عيونهم فيصيروا أطلب لرضاهم من رضا الخالق واعكف على خدمتهم من خدمته".

وقال للأعور: "حرض جدودك، وضاعف جهودك، فيما أنت بصدده من استمالة الناس إلى الخنا والفحشاء والخمر والإثم فلعلهم ينغمسون في ذلك حتى لا يبقى لهم وقت للتوبة فإنها - وا أسفاه - درياق الذنوب" فهز الأعور رأسه وصر بأسنانه كأنه يقول ما أشد التوبة علينا معشر الشياطين، لأنها تهدم بناء سنة في ساعة". وقال إبليس لوسط أبنائه: "أي مسوط! إنني ما عرفت عنك تقصيراً في المهمة التي أنت منوط بها، من بث سموم الرذيلة بين بني آدم كالكذب والنفاق والخيانة. ومع ذلك فإني أوصيك ببذل غاية المجهود في إيباق هذه الأمة برذائلك التي تقصر بهم عن بلوغ الغاية المتوخاة لهم من الدخول في ملكوت السموات والوصول إلى حضرة القربات".

وقال لداسم: "وأنت وإياك أن يفلت من وسواسك صديقان أو أخوان أو زوجان حتى توقع بينهما العداوة والبغضاء وتفك ما بينهما من رباط المحبة التي هي الإيمان".

وقال لزلنبور: "لا تنفك عن دخول الأسواق والشوارع وأماكن الاجتماع العامة فتوقد بين الناس نيران الفتن وتحملهم على التخاصم والسباب والمقاتلة، فإن سباب هذه الأمة فسوق وقتالهم كفر".

ثم قال موجهاً الخطاب إلى الجميع: "اعلموا أني لا زلت عند نظري الأول من أن استمالة هذه الأمة أمر صعب للغاية. ولكني أتفاءل خيراً كلما رأيتكم مشتغلين بما يعنيكم من هذا الأمر. غير مكبين على اللهو واللعب كما هو دأبكم. فكونوا عند ظني فيكم وانصرفوا الآن راشدين".

العامية المغربية

نشرت مجلة الصباح التي تصدر بمصر في عددها (550) مقالاً بعنوان "بحث إصلاحي للمستشرق م.كولان" هذا نصه:

الأستاذ م. كولان من أبرع المستشرقين الفرنسيين الذين يهتمون باللغة العربية ومقارنة لهجاتها. وقد وضع أخيراً بحثاً قيماً عالج فيه مشكلة اللغة في المغرب، وتراوحها وتأرجحها بين الفصحى والدارجة. ونشرت الحكومة هناك هذا البحث وها نحن نستخلصه للقراء. وإذا كنا نرى أنه يستحق التقدير، إلا أننا نرى أيضاً أنه يستاهل كثيراً من النقد وسيلاحظ القراء أن ما أشار إليه الأستاذ كولان من مواضع المقارنة بين اللهجتين العامية والعربية في هذا البحث لا ينطبق على بلاد المغرب وحدها وإنما يتجاوزها إلى سائر البلاد العربية (وغير العربية أيضاً وهذا ليس من شأننا الآن) إذ تقوم في كل منها لهجة دارجة إلى جانب اللهجة الفصحى، وهذا ما يزيد من أهمية هذا البحث وشعر بضرورة نقده والتعليق عليه:

تقوم في المغرب وسائر بلاد الضاد لغتان يتعامل بهما الناس لغة فصحى وأخرى دارجة. وبالدارجة يتكلم الناس ويتفاهمون، وأما الفصحى فهي لغة الكتابة فحسب ولا يلم بها إلا المتعلمون وهي بعد ذلك لغة القرآن والحديث والشريعة والعلم والأدب..

وأنت ترى في المغرب أن الناس خاصتهم وعامتهم من الخدم إلى العلماء يتعاملون بالدارجة على حين تصدر القوانين والأحكام والكتب بالفصحى. وهذا الازدواج في اللغة يكلف الأدب المغربي كثيراً، فيدخل عليه التصنع، ولا سيما أن المرأة ولها أثر في المجتمع - بعيدة عن المجتمع المغربي، ولهذا يخرج الأدب المغربي مجرداً من الحياة الصادقة النابضة ولهذا تجوز تسميته بأدب المتفيقهين.

إذن فمشكلة اللغة في المغرب محصورة في أمرين، لغة فحصى هي وسيلة الثقافة ولكن لا تفهمها إلا قلة. ولغة دارجة غير صالحة كوسيلة للثقافة لتعدد لهجاتها وافتقارها إلى التعبيرات العلمية. ولهذه المشكلة حلول ثلاثة:

أولها ما يطالب به الشباب المتعلم في المغرب من نشر الفصحى ونسخ الدارجة. ويستند في مطالبته بذلك إلى تحقق هذه الغاية نسبياً في مدن الشرق الكبرى كالقاهرة ودمشق وبغداد. وهذا الاستناد غير صحيح. إذ أن أهالي هذه المدن الشرقية منحدرون من أصل عربي ولهذا فإن الدارجة بقيت متصلة بالفصحى في كثير من مواضعها كما أن المتعلمين هناك نسبة كبيرة، على حين أن أهل المغرب ينحدرون من أصول متباينة منها البربري والإسباني والعربي، ولهذا يبدو الفارق بين الفصحى والدارجة لديهم كالفارق بين الفرنسية واللاتينية وهنا تتجلى صعوبة إحلال الفصحى محل

الدارجة. وحتى في البلاد التي تيسر فيها هذا الإحلال نرى أنه لم يتيسر إلا في المدن. ومصداق ذلك أن القضاة القاهريين في الصعيد كثيراً ما يستعينون بمترجمين لفهم لهجة المتقاضين.

وثاني هذه الحلول، تعميم الدارجة التي يفهمها الجميع واتخاذها كلغة للثقافة. بيد أن هذا القول مردود بكثير من الحجج. منها أن لا وجود للدارجة إلا اصطلاحاً إذ هي تنطوي على عدة لهجات واختيار واحدة منها وتعميمها لا يتأتى إلا بالاستبداد والإرغام وإذا كان هذا قد وقع قبلاً كما اتخذت لغة قريش للعربية ولغة قشتالة للإسبانية، فإنما لأن هذه وتلك وأمثالها قد صحبها ما يبرر هذه السيطرة من نفوذ ديني أو أدبي أو سياسي على حين أنه ما من واحدة من لهجات المغرب الدارجة تتميز على أخواتها بشيء أو يقوم لها أساس نحوي أو ثروة في التعبيرات العلمية ولا سيما في وجود لغة (القرآن) الفصحى.

وثالثها الاستغناء عن الدارجة والفصحى معاً، إذا لم يكن مستطاعاً تغليب إحداهما على الأخرى وتعميم اللغة الفرنسية في المغرب وجعلها وسيلة للثقافة وحدها. وهذا الحل غير منطقي وغير مقبول شكلاً ولا موضوعاً. وتواجهه نفس الصعوبة المواجهة لنشر الفصحى، كما أن الفرنسية ليست لغة الإسلام الذي ينشر ظله على المغرب والقرآن والحديث وهما مرجع الإسلام فاحتلال الفرنسية محل الفصحى إنما يعتبر مزاحمة غير مرغوب فيها إن لم يعتبر عداء صريحاً.

"كان معقولاً أن يتاح هذا الحل لو أن العصور الوسطى قضت على الثقافة العربية ولكنها لم تفعل. ولكن الأدب ا لعربي اتصل بالثقافة الغربية في القرن التاسع عشر ونقلت أسفار هذه إلى ذاك واهتم المستشرقون بالأدب العربي وأقبلوا على دراسته وعملوا على إظهار محاسنه وسحره. وأصبحت الفصحى وسيلة صحيحة صالحة للثقافة والترجمة عن الفكر الأوروبي".

هذا أهم ما جاء في كتاب الأستاذ م. كولان ونحسب أن القراء قد أدركوا أهمية هذا البحث، وسنعود في الأسبوع القادم إلى تناوله بالدرس والنقد إن شاء الله.

هذا عرض الصباح لرأي م. كولان. ودونك ما علقت به عليه في العدد التالي وقد عنونته (بأزمة الفصحى في شمال أفريقية):

نشرنا في الأسبوع الماضي موجزاً للبحث الذي نشره المستشرق الأستاذ كولان عن أزمة اللغة العربية في شمال أفريقيا (المغرب) والحقيقة أن جميع الأمم الناطقة بالضاد شرقاً ومغرباً، تعاني اليوم كفاحاً بين العربيتين الفصحى والدارجة وتؤثر هذه المعاناة في الحياة والأدب أيما تأثير.

يقول الأستاذ كولان: وهذا الازدواج في ا للغة يكلف الأدب المغربي كثيراً، فيدخل عليه التصنع، ولا سيما أن المرأة - ولها أثر في المجتمع - بعيدة عن المجتمع المغربي، ولهذا يخرج الأدب المغربي مجرداً من الحياة الصادقة النابضة. ويقول أيضاً: إن

الاختلاف بين الدارجة والفصحى في المغرب أكبر منه كثيراً في البلاد العربية الأخرى لأن أهل المغرب مزيج من عناصر الإسبان والعرب والبربر بينما أهل الشرق أصلهم عربي.

ثم اقترح الأستاذ كولان ثلاثة حلول لأزمة العربية في المغرب كما أوردنا في الاسبوع المنصرم. ونحن لا نشك هنيهة في أن للأسباب التي ساقها الأستاذ كولان وجاهتها. بيد أنها لا تؤلف إلا شطراً ضئيلاً من الحقيقة.

وأما الشطر الأكبر في أزمة اللغة العربية في المغرب فإنما يرجع إلى قوى سلطان الاستعمار هناك. ولو أن هذا الاستعمار قد اتخذ طريقاً دستورياً مبسطاً أو خفف من وطأة سيطرته قليلاً، لما كانت هناك أزمة لغوية قاسية. ونمثل لذلك بمصر فلا يستطيع أحد أن يقول عن أدبها الحديث أنه أدب متفيقهين كما يقول الأستاذ كولان عن أدب المغرب، ذلك لأنها بدأت كفاحها الوطني منذ بعيد وكانت الروح الاستعمارية فيها أخف وطأة بكثير منها في المغرب، ولهذا وجد التعليم والثقافة واللغة الفصحى متنفساً عندنا.

كما أن خروج المرأة إلى المجتمع، وهي مؤثر أدبي قوي، لم يتجل في مصر إلا منذ سنة 1919 ومنذ حينئذ أخذ يسير بخطا واسعة نتيجة التخفيف الاستعماري شيئاً فشيئاً حتى كاد يمحى.

ولم يحاول الاستعمار في مصر ان يحارب اللغة كثيراً، فبقيت اللغة العامية مقصورة على الفصحى المحرفة. أما في المغرب فقد أدخلت

كلمات كثيرة من الإسبانية والفرنسية والإيطالية على العربية فمسختها ولوثتها، وكم نخشى أن تثبت هذه الكلمات إلى النهاية في المغرب ثبوت الكلمات الفارسية في لغة العرب منذ الفتح العربي في فارس.

وأما عن اقتراح الحلول فنحن لا نجد سبيلاً نافعاً أفضل من نشر التعليم العربي في المغربي بدرجة واسعة حتى تحل الفصحى محل الدارجة، بيد أننا نرى أن هذا الجهد لن يثمر إلا إذا خفت وطأة الاستعمار ورفعت يدها ولو قليلاً عن رقاب المغاربة.

"إن لغة المغرب. حتى الفصحى، تبتعد عنا حتى في الكتابة وفي طريقة الخط وفي طريقة رسم الحروف، فنرى خطهم العادي بين النسخ والكوفي ونراهم يرسمون نقطة الفاء من أسفل ونراهم يضعون للقاف نقطة واحدة. وأرى أن الحكومة المغربية تكسب خيراً للغة والثقافة لو أنها استعانت بأساتذة مصريين في تنظيم التعليم هناك كما يفعل العراق اليوم".

هذا تعليق الصباح على بحث م. كولان وهو غير كاف في دحض ما يحتويه من أباطيل فضلاً عن اشتماله على بعض الأغلاط التي أنجزت إليه من تقريره لأسباب الأزمة المزعومة في البحث. ونحن لذلك نعقب عليه بما يكشف عن غره ويميز لبابه من قشره، وهو هذا المقال الذي كتبناه لنشره بالصباح ولكنا غفلنا عن إرساله في حينه حتى برز بها أيضاً كلام في الموضوع اعتبرناه كافيا في الرد على أصل المسألة فلم نر حاجة في نشره.

قرأنا ما نشرته الصباح الغراء بالعدد (550) عن أزمة الفصحى في بلاد المغرب من بحث للأستاذ كولان وما علقت به عليه في العدد بعده يليه. وقد كانت سبقت إلى نشر البحث إحدى جرائدنا الوطنية[1] وعلقت عليه بما يستحق. وحدانا إلى كتابة هذه الكلمة أن تعليق الصباح لم يكن إلا بحسب ما يبدو من ظاهر كلام مسيو كولان، وذلك الكلام له باطن كما له ظاهر ونحن نعرف باطن هذا المسيو وغيره من مستشرقي السياسة لا العلم إن صح التعبير.

فالأزمة التي يتحدث عنها الأستاذ المذكور لا وجود لها إلا في مخيلته، وفرنسا وإن مضت على فرنسة التعليم منذ نزلت هذه البلاد، لم تقدر أن تخلق هذه الأزمة، لأن الشعب المغربي جد مشبث بعربيته ويقدمها في الطلب على كل لغة أخرى، يساعده على ذلك أساتذة المعاهد الدينية وعلى رأسها "القرويين" وأساتذة المدارس الأهلية التي وإن تكن قليلة فإنها ذات أثر بليغ من هذه الناحية.

فأما أن عامية المغرب هي أبعد عن الفصحى من عامية مصر والشام والعراق فهذا لا يصح ولا يمكن أن يقول به إلا جاهل أو مضلل يريد أن يصل إلى غايته من طمس الحقيقة وتزويرها ولو عن طريق الإفك والبهتان.

(1) هي جريدة الأطلس، انظر العدد الأول منها.

ولا نريد أن نتعصب للمغرب أو نفاخر الأقطار الشقيقة بما نقول ولكنا نقرر حقيقة واقعية ونكتب للتاريخ الأدبي فيلزمنا أن نصرح ولا نداجي في شيء بأن عامية المغرب هي من أقرب اللهجات وأقربها إلى الفصحى لكثرة ما تشتمل عليه من التراكيب الصحيحة والكلمات الفصيحة، فهي لا تزال محتفظة بتصاريف الفعل على اختلافها ومراعية الفرق بين المذكر والمؤنث في غالب الاستعمالات. وفي الجمل الإسمية هي أقل العاميات التي سمعناها حشواً وتحريفاً للكلم إلى غير ذلك.

أما عن كثرة المفردات اللغوية التي تشتمل عليها فحدث ولا حرج حتى إن منها ما قد يعد اليوم عند بعضهم من قبيل الغريب بل إن فيها ألفاظاً كثيرة من هذه الكلمات غير القاموسية التي تسمي بعض الأشياء أو تدل على بعض المعاني المستجدة في العصور العربية المتأخرة مما لم يتضمنه كتاب ولا نص عليه قاموس إلى الآن، ودونك جملة ألفاظ من النوعين؛ الغريب والكلمات غير القاموسية الشائعة في العامية المغربية مما استذكرناه الساعة:

الزمام[1] (لقائمة الحساب ونحوه) مضربة[2] (لنوع من الفراش)

---

(1) ورد في كلام الباجي وابن الخطيب.

(2) ذكرت في كتاب الكنايات للثعالبي.

العيالات[1] (النساء) تقلق[2] (أكثر القلق) براكة[3] (لبيت من الخشب) الجونة الجري (للوكيل على الكراء فقط) العظاءة مخدة (للوسادة) المردية (لصفات المخنثين، وهي نسبة إلى المرد جمع أمرد ويمكن أن يقال فيها سجعة المردية مردية) الأبجدي (للأمي نسبة إلى أبجد) بنين (وصف للشيء الجميل) الغضار[4] (لطبق الطعام وصانعه هو الغضار يقع ذكره في الكتب) الشياظ (لرائحة الاحتراق) الخلالة (لما يقال له بالمصرية الدبوس) الغرارة (معروفة ومن أمثال العامة كسبت الفارة غرارة يقال لمن يباهي بالشيء التافه) مثلثة[5] (لنوع من الفراش) الزلافة[6] (لصحن صغير ذي كعب في أسفله) التبان. الطارمة. السهوة. الكياب. الخضاب. شنق للدابة (كبحها بلجامها) البخنق. العتلة وفعلها عتل. السبنية قفقف. الدرد (للراسب في الإناء) التبطين الميدة تسوق. أنقز[7] (وثب) المشور. الهيشر هذا من بابه هذا.

---

(1) وردت في كلام عمر.

(2) جاءت في رسائل البديع.

(3) جاءت في نفح الطيب وزهر الأفنان.

(4) جاءت في النفح وغيره.

(5) جاءت في شرح الصفدي للامية العجم.

(6) وقع ذكرها في شرح النووي لمسلم وفي أخبار الحمقى.

(7) ذكرها في الضرائر هذا وباقي الألفاظ من الغريب المنصوص في كتب اللغة.

ونذكر هنا ولو للاعتبار ما كتبه الدكتور فريد رفاعي وهو رئيس قلم المطبوعات في مصر ومؤلف كتاب عصر المأمون على الطارمة في تعليقه

فهذه ست وثلاثون كلمة مما أمكننا أن نستحضره ونحيل على مراجعة في هذه الساعة، وغيرها كثير مما يلزم التوفر عليه وتخصيصه ببحث مستقل.

ولسائل أن يسأل ما هو السبب الذي بقيت به عامية المغرب قريبة من الفصحى في حين ابتعدت عنها عامية الأقطار العربية الأخرى على قربها من موطن العروبة الأصلي وبعد المغرب عنه؟

-

على كتاب معجم الأدباء لياقوت الذي صححه الدكتور وأخرجه في طبعة متقنة. فقد جاء فيه هذه العبارة (فخرجوا من باب الطارمة) ج 3 ص84 فكتب الدكتور عليه "لعله باب خاص لأهل المنزل كما يقال باب الحريم" فهذه لفظة من الغريب الواقع في كلام العامة بالمغرب وقد خفيت على رجل بهذه المثابة وهي منصوصة في أصغر معجم عربي وهو مختار الصحاح.

ومثال آخر على الألفاظ غير القاموسية كلمة المشور التي تستعمل عندنا في البلاط الملكي وهي إسم مكان من المشورة إذ كان الناس ينتظرون به صدور الإذن لهم بالمقابلة بعد المشورة فهي من حيث الاشتقاق عربية ليس عليها غبار ولكن انظر ما كتبه عليها مؤلفو كتاب المطالعة المختارة وقد نقلوا قطعة لابن بطوطة وردت فيها هذه الكلمة ج4 ص172: "كلمة لم نعثر عليها في كتب اللغة ويظهر أن معناها الحجرة الكبيرة أو الإيوان" وهؤلاء أربعة من كبار رجال العلم في مصر وفيهم واحد عضو في مجمع اللغة الملكي ولسنا نقصد الزراية عليهم ولكننا نريد أن نثبت ما في العامية المغربية من الألفاظ الفصيحة جريانها في الغالب على قواعد الفصحى في الصرف والإعراب فضلاً عن الثروة التي تحويها من الألفاظ الصحيحة.

والجواب سهل وهو أن سبب ذلك استقلال المغرب الذي لم يتطاول إليه الحكم التركي في حين أن هذا الحكم قد شمل سائر البلاد العربية وعمر فيها قرابة ستة قرون. فقضى على جميع ما كان فيها للعربية من مجد وسمو وبقيت لا ترفع رأساً إلى زمن الانبعاث في عصر محمد علي.

أما المغرب فقد سلم من ذلك التسلط الأعجمي وبقي محتفظاً بصبغته العربية وزاده قربه من الأندلس وحلول مهاجرة "الفردوس المفقود" به استعراباً وشدة تمكن من العربية حتى لقد غبر عليه عهد كان وحده حامل راية العروبة لا ينازعه فيها منازع. وقد عبر عن ذلك العلامة محمد بيرم الخامس صاحب كتاب صفوة الاعتبار بهذه العبارة البليغة التي هي دليل قاطع في هذا الموضع: "لعمري إن صناعة الإنشاء في الدول باللغة العربية كادت تكون الآن مقصورة على دولة مراكش".

فبان بهذا أن ليس في المغرب أزمة لغة، وأن المغرب كغيره من البلاد العربية يتكلم العامية والفصحى، كما تواطأ على ذلك كل من الباحث ومجلة الصباح، وليست عامية المغرب أبعد عن الفصحى من العاميات العربية الأخرى بل هي أقربها أو من أقربها إليها، وأنه إن كانت هناك أزمة على الحقيقة فهي أزمة التعليم كما أشارت لذلك الصباح في تعليقها فإن المغرب على عظمته ليس فيه إلى الآن غير ثلاث مدارس ثانوية وهي كالمدارس الابتدائية التعليم فيها بالفرنسية لا غير. أما العربية فتلقى كلغة إضافية في حصص قليلة جداً. وليس بالمغرب تعليم عال ولا جامعي أصلاً لا بالفرنسية ولا بالعربية ما عدا التعليم الديني بالقرويين كما هو معلوم.

هذا ما يتعلق بأصل المسألة وجوهرها وأما ما أضيف إليها من ذيول وحواش فكله لا أصل له ولا حظ له من الثبوت كقول الباحث أن أهل المدن الشرقية ينحدرون من أصول عربية بخلاف أهل المغرب فإنهم بربر وإسبان ثم عرب ولذلك يسهل تعميم الفصحى بين أولائك ويصعب بين هؤلاء فإن هذا الكلام يمكن أن يكون حجة على الأغمار والبلداء. أما نحن ومعنا أهل العلم بأصول الأجناس (الأنتربلوجيون) فنعرف أن أهل تلك المدن الشرقية فيهم الفارسي والتركي والديلمي والكردي والأرمني والقبطي والرومي وسواهم كما فيهم العربي ولكن ليس وحده فهم إذن أكثر عجمة واختلاطاً.

وكذلك قول الصباح المستند إلى هذه الحجة أن كلمات كثيرة من الإسبانية والفرنسية والإيطالية قد أدخل على العربية في المغرب، فإنه بعيد جداً من الصواب، والعامية في المغرب ونعني به المغرب الأقصى لم تتأثر بلغة المستعمر أصلاً وفي بقية الأقطار المغربية إن كان وقع شيء من ذلك فهو دون ما وقع للعامية في مصر والشام والعراق وغيرهما من التأثر العظيم بالتركية.

أما أن الأدب المغربي بعيد عن الحياة الصادقة بسبب بعد المرأة عن المجتمع فتلك مسألة أخرى ولا خصوصية للمغرب بها بل هي عامة في سائر البلاد الإسلامية، ومع ذلك فإن تباشير النهضة الأدبية الجديدة تحمل على حسن الظن بالمستقبل ولاسيما عند الأخذ

بضبع المرأة وتعليمها كي تمكنها المشاركة والتعاون مع الرجل في بناء ذلك الصرح الممرد.

ومسألة الخط التي أشارت إليها الصباح هي كما قالت. والمغرب أخذ في الخط أخذ الأندلسيين الذين حافظوا على الخط العربي الأول الذي حمله بنو أمية معهم إلى هذه الديار. وما أحرى هذه المسألة بالدرس في مجمع لغوي يحضره أدباء وعلماء المغرب والمشرق معاً فيصلون فيه إلى نتيجة تقرب من شقة هذا الخلاف الواقع بين الخطين. ولسنا ممن يجمد على حالة وجدنا عليها آباءنا إن كان الخير في غيرها ولا ممن يتعصب فيقول لا نترك من أمورنا هذه شيئاً فإن أرادوا هم فليتبعونا.

وفيما عدا الخط لا نرى أن هناك خلافاً بيننا وبين الشرق في هذه العربية أصلاً. فقول الصباح: "إن لغة المغرب (حتى الفصحى) تبتعد عنا حتى في الكتابة وفي طريقة الخط وفي طريقة رسم الحروف. هو من الكلام الملقى على عواهنه الذي ينقصه كثير من التحقيق والتدقيق".

هذا المقال، ودونك ما جاء في الصباح تتمة لهذا المبحث بالعدد (553) تحت عنوان: "المستشرق كولان والتمويه الاستعماري": من طريف الأكاذيب في المذكرة التي وضعها المستشرق كولان عن أزمة اللغة العربية في المغرب وهي المذكرة التي لخصناها وترجمناها لقرائنا وتولينا الرد عليها بإيجاز منذ أسابيع قلائل، إنه يقول إن القضاة

المصريين في الصعيد كثيراً ما يتعذر عليهم فهم لهجة الأهلين هناك، مما يحدوا بهم إلى الاستعانة بمترجمين.

ولقد تحدثنا إلى الصديق الكريم الدكتور زكي مبارك في هذا الشأن، وهو بهذه المناسبة على صلة بالمستشرق كولان، فأيد ما قلناه من أن هذه المذكرة بكل ما جاء فيها ليست إلا تمويهاً استعمارياً يطلي به المستعمرون وجوه الحقائق، ويحاولون بهذه الأراجيف أن يفهموا أهل المغرب أن ما عندهم من ضعف شأن الفصحى وطغيان الدارجة إنما هو من بعض ما عندنا.

ولا أدل على سوء نية الاستعمار في المغرب من أن المستعمرين أرادوا في عام (1931) أن يتبعوا مذهب "فرق تسد" وراحوا يدخلون في روع أهل المغرب أنهم نشأوا عن أصلين عربي وبربري وأرادوا أن يضعوا نظاماً قضائياً خاصاً للبربر وآخر للعرب ليثيروا الحفائظ والسخائم بين أولائك وهؤلاء وبهذا يسود الاستعمار. ولكن أهل المغرب تنبهوا آنذاك إلى الدسيسة وثاروا عليها فأسرع إليهم المسيو (دوميرج) واستطاع أن يخمد النار بالملاطفة وإظهار الود إلى حد العناق والتقبيل.

ومن محاولة إيقاظ هذه الفتنة القديمة في هذه المذكرة تتضح نوايا المستشرق كولان الاستعمارية، فليست هناك أزمة لغة ولكن هناك أزمة استعمار تقتل اللغة وتبعد الشقة بين الدارجة والفصحى وتدخل الغريب على اللغة.

ومصداقاً لهذا يقول الدكتور زكي مبارك أن الدارجة في تونس غير بعيدة من الفصحى، بل هي قريبة من دارجتنا في مصر، على غير الحال في الجزائر إذ يتعذر علينا فهم دارجتهم وذلك لشدة وطأة الاستعمار في الجزائر وخفتها في تونس ولا سبيل لانتصار الفصحى هناك إلا باضمحلال نفوذ الاستعمار.

هذه تتمة الصباح للبحث ونلاحظ أنها تؤيد ما ذهبنا إليه من أن السياسة هي التي أملته على صاحبه، وأن عامية المغرب في العموم فصيحة خلاف ما يزعمه مسيو كولان. وتلك شهادة الدكتور زكي مبارك لعامية تونس، ولا يقاس مسيو كولان بالدكتور زكي مبارك في المعرفة بأسرار اللغة العربية، ونعتقد أن لو سمع الدكتور عامية المغرب لكان حكمه أوضح، ولهجته أصرح لأن أفضل ما يمتاز به بين إخوانه من أدباء مصر عدم المداجاة في الحق.

هذا ولا يخفى ما في هذه التتمة من بعض الاغلاط التاريخية المتعلقة بالقضية البربرية وحيث أنها ليست من موضوعنا فقد غضضنا عنها الطرف.

السيد عبدالرحمن الكواكبي

الكاتب الذي تنبأ بمصير الدولة العثمانية قبل عشرين عاماً من سقوطها والمفكر الذي عرف أن مجد الإسلام لا يقوم على غير أكتاف العرب

ذهب السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده بشرف الذكر والذكرى وتميزا بأحدوثة العصر والدهر أنهما موقظا الشرق الإسلامي وباعثا الحياة فيه لا يشاركهما في ذلك مشارك ولا يساجلهما مساجل، في حين أن هناك كثيرين ممن عملوا لهذه الغاية وركبوا للوصول إليها الصعب والذلول فلم يظفروا بعشر الثناء الذي ظفر به الشيخان المذكوران ولم يضرب لهم بنصيب بينهما في الفخار الذي استبدا به أو قل إن الناس أفردوهما به من غير موجب ولا بينة.

ومن هؤلاء العاملين المنسيين والمجاهدين المجهولين السيد عبد الرحمن الكواكبي الكاتب الذي تنبأ بمصير الدولة العثمانية قبل عشرين عاماً من سقوطها والمفكر الذي عرف أن مجد الإسلام لا يقوم على غير أكتاف العرب.

لن تصادف إسم الكواكبي في شيء من هذه الدراسات التي تبحث، عن نهضة الشرق وحياة الإسلام، وعبثاً تحاول أن تجد بحثاً في الموضوع غير شديد الارتكاز على هذين العلمين فقط السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده. ولعل السبب في ذلك هو الإيحاء والإقليمية التي طغت على أقلام البحاث من بعض الأقطار الإسلامية، فما تقف لهم على أثر غير مصطبغ بصبغتها إلا نادراً.

فأما الكتاب الأجانب فإن أكثرهم وأسبقهم إلى طرق هذه المواضيع من الإنجليز. والإنجليز حكموا مصر وتوطد قدمهم فيها ردحاً من الزمن وكانت موضع عنايتهم ومثار البحث الطويل لأقطاب سياستهم ومعتمديهم فيها، فلا جرم أن تدور أبحاثهم حول الأعلام البارزة فقط من أهلها أو من الطراء الذين أثروا فيها تاثيراً مشهوداً لا ينكر. لا سيما وقد صارت مركز الحركة الإسلامية بعد تقهقر دار الخلافة وسقوطها. وفيها الأزهر معهد العلوم الدينية الذي يرد منه القاصي والداني. أضف إلى ذلك كله ما عرف به البحاث الأجانب في المواضيع الشرقية من قصور النظر وضيق العطن، فلهذا لا ينتظر منهم أن يأتوا بغير ما أتوا به من تلك الدراسات الناقصة والأبحاث غير المستوفاة.

وهؤلاء المتقدمون في هذا الشأن هم سلف من أتى بعدهم والموحون إليهم بجوهر الموضوع فلذلك تجد دراساتهم أنقص وأقصر ونرى ظواهر التقليد غالبة عليهم متحكمة فيهم.

وأما غير الأجانب من الكرام الكاتبين في يقظة الشرق ونهضة العالم الإسلامي فإنهم بما تغلغل فيهم من الوطنية الإقليمية والروح الشعوبية يحاول أكثرهم أن يقصروا هذا الفضل على وطنهم: مصر، ويميزوا به أبناءها البررة احتجانا للعبقرية الخارقة واحتكاراً لكل مجد أثيل.

ونحن لا يضيرنا ذلك شيئاً ولا نكره أن تكون مصر في طليعة أقطار الدنيا لا أقطار الإسلام فقط عزاً وسؤدداً وإن يحوز أبناؤها كل شرف وفخر، لأنا نعتبر ذلك شرفاً لنا وفخراً للعالم الإسلامي كله. لا كمن ينفس على قطر شقيق ما يرى له من الفضل ويرى نشره وإذاعته نقصاً في حقه وحطاً من قدره. إنما الذي يضيرنا أن تضيع جهود العاملين منا ونتعاون نحن والأجانب على غمطها ونسيانها فينقطع الرجاء في إنصاف التاريخ ويضعف الأمل في لقاء المجاهدين والأحرار جزاءهم. وحينئذ تفقد روح التضحية وتموت معنوية الأمة وليس بعد ذلك غاية في التلاشي والاضمحلال.

❖ ❖ ❖

عمل الكواكبي في وظائف الحكومة في بلده حلب. ما عمل الشيخ محمد عبده، واشتغل في تحرير جريدتها (فرات) كما حرر الشيخ (الوقائع المصرية) ومن ثم أتاه لقب السيد الفراتي الذي كان يتستر به في كتاباته السياسية، كما أنشأ جريدة مستقلة باسم (الشهباء) وأخرى باسم (الاعتدال) ولكن الحكومة التركية لم ترض قط عن خطته الإصلاحية وفكرته التحريرية فضايقته وعطلت جرائده مراراً

ثـم حجـزت المطبعـة وألقـت عليـه القـبض وسـجن وجـرد مـن أملاكه وأخيراً غادر بلاده في محرم 1318 فجاء مصر وخرج منها سائحاً فطاف زنجبار والحبشة والحجاز واليمن والهند ثم رجع إلى مصر، وفيها طبع كتابيه المشهورين: طبائع الاستبداد وأم القرى، اللذين لم ينشر له غيرهما وبقي بها إلى أن توفي سنة 1320[1].

وفي بعض هذه الأحوال مشابه مما وقع لجمال الدين وعبده فلا فرق بينه في التضحية والجهاد وبين الرجلين اللذين انفردا عنه بالشهرة وبعد الصيت. لقد كانت نهضة جمال الدين سياسية محضة قوامها الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ومقاومة الاستبداد في كل حكومات الإسلام.

ولذلك كان مطارداً من جميع تلك الحكومات سواء الإسلامية منها وغيرها. وكانت دعوة محمد عبده باستثناء مشاركته في الحركة العرابية، دينية محضة تقوم على أساس الإصلاح الإسلامي بنشر العقيدة السلفية والترويج للعلوم الكونية التي كان بعض القاصرين يرى أنها منافية للدين.

أما الكواكبي فإن دعوته كانت تستند إلى المبدءين معاً وتسير في كلا الطريقين فلم يقاوم أحد الاستبداد مقاومته ويكشف عن دخائله ويقبحه للناس ويبين لهم سوء أثره في كل المصالح والمرافق

(1) عن تاريخ الصحافة العربية لفيليب دي طرازي.

الحكومية والشعبية وفي الدين والتربية والأخلاق كما أنه لم يقصر دون غاية في الدعوة إلى الإصلاح الديني ومعالجة العلل التي انتابت المسلمين في أفكارهم وعقائدهم، فقعدت بهم عن مجاراة الأحياء والتوثب على طلب المجد الضائع.

لقد نادى بأعلى صوته أن علة العلل في تأخر الشرق الإسلامي وتوالي النكبات عليه هو استبداد حكامه من الخليفة إلى أصغر مأمور في الدولة فعقول أهله قدر أن عليها الجهل وتمكن منها الغباء من جراء ضغط المستبد وتضييقه خناق الحرية الفكرية فضعفت الهمم وكلت العزائم وانحصرت رغبة الكثيرين في إرضاء الظالم والحظوة عنده حتى إن منهم من يتقرب إليه بما يتقرب إلى الخالق وربما أطلقوا عليه أسماءه ونعوته فوقعوا في الشرك البواح والكفر الصراح.

وهو مع ذلك لا يطمئن إلى هذا التقديس فيبالغ في البطش والتنكيل بأحرار الأمة وزعمائها الذين لا ينجيهم إلا المهاجرة والتقلب في البلاد حتى يموتوا غرباء من غير أن تستفيد منهم بلادهم شيئاً وهكذا يعيش المستبد دائم الحذر والتحفظ سيء الرأي في كل من يمكن أن يمد له يد المساعدة ويبصره بوجه الإصلاح فلا يلبث أن يمكر به متى أمكنته الفرصة منه. وكيف يرجى مع ذلك حياة للأمة المنكودة الحظ أو نهضة للشعب المقهور؟

ولا ينتهي ضرر الاستبداد إلى حد القضاء على أهل الرأي والتدبير من الأمة فإنه يتناول أيضاً رؤوس الأموال والثروات العامة

فيبتزها من أربابها قهراً ويبددها في تدعيم سلطانه، واصطناع أعوانه. من كل خاوي الفؤاد من معنى الشفقة والرحمة، خالي النفس من باعث الشهامة والهمة وهؤلاء يصرفونها في إقامة نواميسهم وأبهاتهم، إرهاباً للعامة وستراً لنذالتهم الخلقية. والأمة تتدهور في هوة الفقر وتهوي في جرف الإفلاس فحين لا يبقى لديها درهم ولا دينار بسطوا عليهما المستبد، تلجأ الدولة إلى عقد القروض والسلفات الأجنبية التي تكون نتيجتها التحكم في مقدرات البلاد وسيطرة الأجنبي على موارد النفع جميعا.

وفي الأخلاق يتصرف الاستبداد أيضاً تصرفه الممقوت فيجعل الحسن سيئاً والمعروف منكراً، ولما كان أقوى ضابط للأخلاق هو الأمر والنهي، وهو في زمن الاستبداد غير متأت فإن الانحلال يسرع إلى الأخلاق فتضعف وتفسد وربما انقلب مقياسها فعد عدم الشهامة ليناً في الطباع والخوف طاعة والنفاق أدباً والملق تهذيباً إلى غير ذلك.

وقل مثل هذا في التربية التي هي علم وعمل. ومن أين للناس المغصوبة إرادتهم المغلولة أيديهم أن يوجهوا الفكر إلى مقصد مفيد أو الجسم إلى عمل نافع؟

ويشرح الكواكبي هذه المعاني شرحاً وافياً ويطبق عليها الأمثلة الصادقة من التاريخ وأحوال العصر حتى لا يبقى فيها ريب لمرتاب. ثم يعرض للعمل على مقاومة الاستبداد ويركز فكرته في ذلك على هذه القواعد:

1- الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستعباد لا تستحق الحرية.

2 - الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدريج.

3 - يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد.

ويقول في النهاية أن الله جلت حكمته قد جعل الأمم مسؤولة عن أعمال من حكمته عليها، وهذا حق. فإذا لم تحسن أمة سياسة نفسها أذلها الله لأمة أخرى تحكمها كما تفعل الشرائع بإقامة القيم على القاصر أو السفيه، وهذه حكمة ومتى بلغت أمة رشدها استرجعت عزها، وهذا عدل وهكذا لا يظلم الله الناس بل الناس هم أنفسهم يظلمون.

وهذا الكلام لا يعلم قيمة النطق به في عهد السلطان عبد الحميد إلا من عاش في ذلك العهد أو قرأ تاريخ ذلك الطاغية وعرف مبلغ عيثه في الأرض وعدد جرائم القتل التي ارتكبها في أحرار الأمة الإسلامية وزعمائها الذين كانوا يحاولون رتق فتق الدولة ورأب صدعها فيجازون في (يلدز) جزاء سنمار. وحسبك أن تعلم أن الكتبي الذي كان يضبط عنده نسخة من كتاب طبائع الاستبداد أو أم القرى يعاقب بالسجن الطويل والغرامة الثقيلة ويعد من أرباب الجرائم الكبرى فهذا مما يدلك على جراءة الكواكبي وقوة إيمانه وعدم مبالاته بالخطر في سبيل الرأي الحر يدلي به للأمة يستصلح فاسداً أو يقيم منئاداً أو يهدي صراطاً مستقيماً.

والعبارة التي ترجم بها كتابه طبائع الاستبداد وكتبها على ظهره وهي قوله: "وهي صيحة في واد، إن ذهبت اليوم مع الريح فقد تذهب غداً بالأوتاد" تكفي وحدها لأن تبيح دمه لذلك الظالم الذي كان لا يتوقف عن شيء إلا عن شيء فيه خير وصلاح للأمة التي استرعاه الله إياها فكيف وهذا يعرض بزوال ملكه ويتنبأ بقرب مصرعه؟

ولقد تمادى الكواكبي على خطته وسار في طريقه منددا بالحكومة الظالمة مهيباً بالأمة إلى تلافي الخطر الداهم من مجيء المستمتعين الذين إن وجدوها يقظى عاملوها كما يتعامل الجيران ويتجامل الأقران، وإن وجدوها وسنى سلبوا أموالها وزاحموها على أرضها وتفننوا في تذليلها وحينئذ لو أرادت حراكاً لا تقوى وتجد الأبواب موصدة في وجهها والمسالك مسدودة ولا نجاة ولا مخرج.

وهو لإثارة التفكير في هذه القضية التي هي مسألة حياة أو موت ومحاولة الإنقاذ من نتيجة السوء المكروهة والتعاون بين أفراد الأمة الممتازين، يدعو إلى عقد مؤتمر النهضة الإسلامية في مكة حيث يجتمع رجالات العالم الإسلامي فيبحثون عن أسباب هذا الفتور الذي عرض للمسلمين في حياتهم السياسية والمدنية وينظرون في الدواء الناجع الذي يزيل هذا الداء العارض ويعود بالأمة إلى حياة الجد والنشاط.

وقد كاتب لهذه الغاية جميع البلاد العربية مستطلعاً الأفكار مهيئاً للاجتماع في موسم الحج سنة 1316 ورأيه أن العرب وحدهم

أولياء هذا الأمر ومجددو هذا الدين، فمجده لا يقوم على غير أكتافهم ونهضته لا تتأتى إلا بأيديهم. وغيرهم يمكن أن يشاركهم في العمل على سبيل العضد والمعاونة فقط لا على سبيل الرياسة والاستقلال، لأنه لا يرجى منه نفع ولو كان السلطان نفسه. (يعني عبد الحميد). ومقررات هذا المؤتمر ومفاوضاته هي التي ضبطها الكواكبي ودونها في كتابه أم القرى.

ولا يتسع المجال لاستيعابها واستيفاء نظرياتها وإن كان من الممكن أن نحوز الغرض منها، أعني غرض الكواكبي، إلى أصلين:

1- إدخال إصلاح إداري عام على دوائر الحكومة العثمانية يقوم على أساس اللامركزية الحكومية، وبذلك يتحقق أمر النهضة مع المحافظة على الجامعة الإسلامية الممثلة في الخلافة.

2- تهيئة الشعب العربي لقيادة العالم الإسلامي وشغله المكان اللائق به في الوجود كما كان من قبل حامل مشعال الحكمة وقائد موكب الحضارة. ويظهر هذا من قوله: "إن مطمح نظر جمعية أم القرى التي قرر المؤتمر إنشاءها وجعلها قصراً على العرب، منحصر في النهضة الدينية فقط. وتؤمل أن يأتي الانتظام السياسي تبعاً للدين. ولا شك أنه لا يقوم بالهدي الديني ويغار على الدين أمة مثل العرب".

ولا نحتاج أن ننبه إلى صدق هذه الفراسة من الكواكبي، فقد رأينا كيف نبذ الأتراك (أعني حكومتهم) الدين وسائر المقدسات،

وجهدوا في البعد من الشرق العربي على الخصوص بقدر ما اقتربوا من أوروبا وتحككوا بها. وها هو مستقبل الإسلام اليوم رهن بيد العرب ولا يعول في نجاحه إلا عليهم.

وللكواكبي، رحمه الله، أنظار وجولات في الإصلاح الديني وانتقادات وحملات على المتصوفة الذين يراهم من أكبر المسؤولين عن تأخر الإسلام لما يتمسكون به من أسباب الفرقة وما يبثونه في الناس من المبادىء الضارة والأفكار المسمومة كالعجز والتواكل وقصر النظر على الدار الآخرة وإلقاء حبل الأمور كلها على غارب القضاء والقدر وغير ذلك.

ولا حاجة بنا إلى بسط هذه الآراء وقد أصبح أكثرها معروفاً متعالماً عند الخاص والعام.

ولكن نظراً حسناً له في توجيه طوائف المتصوفة وجهة محمودة لم نره لغيره أحببنا الإشارة إليه هنا لفائدته وهو: بعد التوسل لحمل هذه الطوائف على الرجوع إلى الأصول الملائمة للشرع والحكمة في الإرشاد وتربية المريدين يحسن تكليف كل فرقة منهم بوظيفة مخصوصة يخدمون بها الأمة الإسلامية من نحو اختصاص فرقة كالقادرية مثلاً بإعاشة وتعليم الأيتام وأخرى بمواساة المساكين وأبناء السبيل وجماعة بتمريض الفقراء والبائسين وفئة بالتشويق إلى الصلاة وغيرها بالتنفير عن المسكرات ونحو ذلك من المقاصد الخيرية الشرعية فيكون عملهم هذا عوضاً عن العطل والتعطيل.

ونحن بعد أربعين سنة، تقول للسيد الكواكبي والأسف ملؤ الجوانح:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

وبعد، فإن للكواكبي ديناً في عنق المسلمين والعرب لا زال أحدهم لم يوف جزءاً منه ولا كلاً. وعار علينا أن يكون هذا جزاء المخلصين والعاملين منا؛ الإهمال والنسيان. فمتى يا ترى يقيض الله لهذا الزعيم من يوفيه حقه بكتابة تاريخه كما يجب ومن يبحث عن بقية كتبه فينشرها في الحلة اللائقة بها لا كما ينشر كتاباه طبائع الاستبداد وأم القرى اليوم نشراً تجارياً رخيصاً الغاية منه الربح والمادة فقط؟؟؟....

ولله در حافظ إبراهيم إذ يقول فيما كتب على قبر الكواكبي وكان حافظ، رحمه الله، منصف الأموات من الأحياء:

هنا رجل الدنيا هنا مهبط التقى هنا خير مظلوم هنا خير كاتب!

قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا عليه فهذا القبر قبر الكواكبي

أديبان

إذا كان الأديب هو المتمرس بصناعة النظم أو النثر أو بهما معاً، ولو لم يستعد للصناعة بأدواتها اللازمة، ولو لم تكن له فكرة أو رسالة يبشر بها بين الناس؛ فإن الشخصين اللذين يساق إليهما الحديث في هذه المقالة أديبان. وإذا كان الشخصان قد يتشابهان في الآلام والآمال، وإن لم تكن بينهما مناسبة في غالب الصفات والأحوال، فهذان الأديبان قد ناسب بينهما الأدب فلا غرو أن يتشابها في الأمل الواحد الذي كان يحذوهما لتنازع البقاء في هذه الحياة والألم الممض الذي سببه الحرفة الملازمة (فيما يقولون) لكل أديب.

أحدهما مشرقي والآخر مغربي، الأول مسيحي والثاني مسلم، المشرقي عاش حتى اكتهل، وتجول في البلاد ما تجول والمغربي احتضر في عنفوان شبابه، وطراوة إهابه، ولم يفارق مع ذلك وطنه فهو معذور إن قصر عن أخيه في شيء، أو إن كان قد سلك هذا السبيل الملتوي في السعي إلى الرزق فمني بالحرمان.ليس هذا فقط ما يميز بينهما عند المقارنة، فإن هناك التربية والأخلاق والوسط الذي ينشأ فيه كل منهما والأحوال الشخصية والعائلية وغير ذلك. ولا نعرف ما قد يتماثلان فيه منها وما يختلفان. و لكن هذا بالنسبة

إلى المشرقي. أما المغربي فهو بلدينا وتربنا نعرف منه ما خفي وما علن، وما ظهر وما بطن، إنما لا سبيل إلى المقارنة بينه وبين من لم نره إلا مرة واحدة في سن لم نكن نستطيع فيها معرفة أقدار الرجال الحقيقية وتمييز غثهم من سمينهم. أما الشيء الذي يجمع بينهما في قرن، فضلاً عن الأدب الذي ينتميان معاً إليه، فهو الطموح إلى الولاية والحكم الذي كان يملأ نفسيهما ويشغل فكريهما ويسيرهما تسييراً مكيفاً بمقتضياته وأحواله، وإن لم يتوافق مع ما يبدو منهما في بعض الأحيان عند الحاجة والضرورة من التكسب بالشعر وما أشبه.

وقد أبعد المشرقي المرمى فكان يتوق إلى الملك ولا يرضى به بديلاً، في حين أن صاحبنا المغربي كان أقل طمعاً وأكثر قناعة، فكان يكفيه أن يتولى عمالة بعض البلدان أو يكون خليفة لعامل أو محتسباً إنما الذي لا يرضاه ولا يقبله أن يعرض عليه وظيف كاتب أو قابض أو حاسب او أي وظيف آخر لا تسلط فيه ولا سيطرة على العباد، وكان يقول: "ترى فلاناً الكاتب الذي يعتز بوظيفة كأنه أوتي ملك سليمان، تالله لا يرضيني بل إنه ليضع من قدري أن أكون في محله" هذا وإنه لأحوج خلق الله إلى ما يكسبه ذلك الكاتب في اليوم بله الشهر ولكنه جنون الحكم.

ولما كان لكل رغبة باعث ولكل ميل سبب، فإني أتحدث عما أظنه السبب في ميل ذلك الصديق إلى مناصب الحكم تاركاً الأديب المشرقي إلى من يعرف جلية أمره، فيحدثنا بحقيقة خبره.

فأما أولاً فإن صديقنا كان سبطاً لأحد الأعيان من رجال الدولة واتباع السلطان، وكان هذا الجد خليفة لعامل طنجة في وقت ما، فكان يوحي لسبطه ما يوحي، مما أثار فيه الاهتمام بهذا الأمر لا سيما وقد كان يستصحبه معه في كثير من المحاضر ويعرفه بمن هناك من الأكابر فكأنه يرشحه "لخلافته" من بعده.

وأما ثانياً فإن جماعة من الشبان - فيهم أديبنا - كانوا قد اضطروا لتمثيل رواية على مسرح الحياة للتغرير ببعض السكان الأجانب ممن لا يعرفونهم، فاختاروه لدور الرياسة لتخلقه بتلك الأخلاق وتلبسه بالحلل المناسبة لها. فظهر بمظهر ابن لوزير سابق وكان له من بين أولائك الشبان الكاتب والترجمان و"الصاحب" الذي يسخره في المهمات والعبد الذي يتبع البغلة إذ كانت السيارات نادرة في ذلك الوقت، حين ركوبه في باب المكتب بالحي الذي يجري فيه التمثيل ثم يردها لصاحبها - لأنها مستعارة - حين الخروج من ذلك الحي ونزول "ابن الوزير" عنها وهكذا.

وكانوا قد حصلوا على دفتر صكوك مالية *(Chéques)* فكان ابن الوزير كل يوم يملأ صكاً ويعطيه على أعين القوم لمن يصرفه في المصرف. وهكذا كان التمثيل يجري بصفة جدية إن لم تغر المطلعين فلا بعد إن تحير النساء وأشباههن وذلك هو المقصود.

وكان أديبنا ذا تؤدة ولسن كما كان ذا بديهة ونكتة. حدث مرة أنه زار المدينة أسطول لبعض الدول العظمى فنزل أديبنا إلى الميناء

المتفرج عليه وكان في هيئته واتباعه يسترعي الانتباه إليه حقاً فصادف أن وجد أميرال الأسطول يريد الركوب في زورق خاص ومعه بعض الأتباع فوقف له الأميرال وسلم عليه وأتقن هو دوره وقابله مقابلة "مشرقة" على حد تعبيره. إلا أنه بعد انصراف الأميرال تقدم فسلم على أتباعه سلاماً خصوصياً انتقده عليه بعد ذلك من كان معه من الشبان فقال لهم هذه أخلاق عربية لا تعرف إلا المساواة!

وبالاختصار فقد دام تمثيلهم لهذه الرواية عدة شهور ولم يحصلوا منه على طائل. غير أن أديبنا كان قد تعود ذلك المظهر المحترم فصعب عليه الرجوع عنه، كيف وهو متطلبه منذ نشأته ولا يزال جده يذكي فيه رغبته؟ فليتعلق به وليطلبه في عالم الحقيقة والواقع لا كما كان خيالاً وتمثيلاً فقط.

وكذلك كانت حياته من قبل أن يستوفي العشرين إلى وفاته في نحو السابعة والعشرين جهاداً مستمراً في سبيل الحكم ونيل الولاية. وأقول جهاداً لأنه كان مع نفسه والناس في تعب كبير. فهو حريص جد الحرص على أن يظهر دائماً بالمظهر اللائق لما يرشح نفسه له فيتأنق في ملبسه ويتئد في مشيته ويستعلي في كلامه. والكثير من الناس يستنكر عليه ذلك وهو لا يبالي.

ومن لطائفه ما قاله لي ذات مرة: أنه لا أحد يسيء عليه الأدب ولا يجد معه حيلة مثل الريح والمطر، أما الريح فإنها تفسد عليه هيئة اللباس من غطاء الرأس ونحوه، وأما المطر فإنه يضطره إلى

السرعة في المشي. وكلامه كله على هذا المنوال دعاية ومزح ظريف.

وأخيراً بلغ أدبينا ما كان يتمناه من قبل وتولى الملك، لا العمالة فقط ولكن على خشبة المسرح. إذ مثلت إحدى الجمعيات الأدبية رواية صلاح الدين الأيوبي واختارته هو لدور السلطان فوافق شن طبقة. ومن يمكنه أن يمثل ذلك الدور ويتقنه غيره؟ ولما ظهر إمام النظارة قال لي صديق فكه كان معي: سبحان الله! إن الهمة دراكة. هذا الفتى كان لا يرضيه أن يكون إلا سلطاناً ذا قوة وبأس شديد فها هو ذاك.

وقد أظهر من البراعة في التمثيل وأضاف من عندياته إلى الرواية ما زادها نجاحاً وأكسبها فوزاً كبيراً . ولا أزال أتمثل حركته المقصودة والتفاتته المعنوية إلى الجهة التي كانت تضم بعض ذوي النفوذ والسلطان من الولاة حين إنشاده هذا البيت:

تحمي الممالك ربها أما أنا فأريد أن أحمي الملك لا يحميني

والآن لم تبق فائدة في التلويح، وقد ذكرنا من أحوال أدبينا الشاب ما هو أبلغ من التصريح. فلنقل إنه السيد محمد بودقة.

وأما الأديب المشرقي فهو الشيخ رشيد مصوبع اللبناني صاحب ديوان الأثر والذي زار المغرب ومدح جلالة الملك مولاي يوسف وتوفي بالدار البيضاء منذ بضع عشرة سنة.

إن كلاً من الأديبين كان شاعراً مداحاً وكلاهما طبقة متوسطة رغم قول المشرقي:

أنـا شـاعر الـدنيا بغيـر تفنـد فلا شاعر قبلي ولا شاعر بعدي

ويظهر لمتأمل كلامهما أن بضاعتهما من علوم اللسان كانت قليلة وهذا أمر نتحققه من أديبنا لأنه لم تتركه "مشاغل الحكم" أن يدرس كثيراً. والأديب المشرقي أكثر نظماً وأطول نفساً من أديبنا لأن المنية والأوصاب التي توالت على هذا في آخر حياته لم تمهله حتى ينضج ويزخر. ومع ذلك فقد ضاع كثير من شعره لقلة الاهتمام وضاعت له أيضاً رواية غرامية قد كتبها وجعلها كالترجمة عن نفسه، فنحن إذا بحثنا عن آثاره اليوم لا نجد إلا بعض مقطعات وقصائد كان قد نشرها في الجرائد في أوقات مختلفة وليست بجيد شعره ولا بخير قوله لأنها من قديم ما نظمه أي من كلامه العشريني أو ما يقاربه. وعندنا له قصيد من أحسن آثاره قاله في تهنئة بزفاف لولا قبح تزكية النفس لأوردناه هنا كنموذج من أدبه الأنيق، وشعره الرفيق، رحمه الله رحمة واسعة وعوضه في دار السعادة والبقاء خيراً مما فاته في دار الشقاء والفناء.

روح مومس

لو لم يكن من الأدلة على وجود الروح إلا هذا الخصام العنيف الذي يتكرر وقوعه في اليوم والليلة دائماً بين الإنسان ونفسه حينما تسفل به مادية الجسم إلى المطالب الوضيعة التي يأبى ضميره الاستجابة لها لكان دليلاً ناهضاً على المراد ومغبراً في وجه كل مادي يجعل الإنسان، ذلك الكائن العجيب الذي خلقه الله على صورته، آلة تتحرك وتتكلم وتدرك بتحرك العضو وتمدد العصب وتموج الدماغ.

هذه فتاة مومس تبيع جسمها بدراهم معدودات وهي في روحها ملاك طاهر لا تزال محلقة في سماء الجلال ومتعلقة بجلال السماء. كانت شابة غضة في نحو الخامسة والعشرين من عمرها جميلة بارعة وإن كان جمالها ليس من عيون ساحرة ولا شفاه حو ولا شعر فاتن، وإنما هو مسحة من البراءة على وجهها وظل من النبل على شخصها ومعان من السذاجة والطيبة والغرارة ترتسم على ملامحها بوضوح تام.

وكانت تسكن في شارع مطروق جداً بإزاء مقهى أوربي وأمام منزل صديق لي. وكان المارة لا يفتأون يحدجونها بنظرات مزعجة، أما السفلة والرعاع فكانوا ينظرون إليها نظرات الإغواء والإغراء، وأما

العلية والخاصة فكانوا ينظرونها باحتقار وازدراء وهي تتألم من الجميع وتظل في حالة نفسية سيئة من أحكام القدر ومجريات القضاء.

وكنت كلما جئت منزل صديقي زائراً ومتفقداً ووقفت هناك منتظراً أو باحثاً عنه أجدها على باب بيتها واقفة أو جالسة على كرسي في سكون واستسلام. وفي أول الأمر لم أعرها اهتماماً بل كنت أتعمد أن لا أنظر إليها ولا ألتفت إلى جهتها. ثم نشأت فيَّ رغبة في تأملها واعتبار أحوالها لا سيما وقد رأيت من حسن هندامها وجمال مظهرها ما جعلني أستلطفها واستملح ذوقها. ورأيت أنها تنظر إلي بخجل واستحياء وكلما تلاقت أنظارنا غضت هي بصرها في ضراعة وتوسل فلا أرى من عينيها إلا أهدابها الطويلة الخمرية اللون التي ترى وسنانة وهي مستيقظة من أجل الأحلام والرؤي التي تتيه في صحاراها وتسبح في بحارها غير مهتدية إلا بأطياف الخيال ولمحات الذكرى.

وجعلت تأنس برؤيتي كثيراً ثم بدأت تحييني كلما رأتني حين المجيء وعند الانصراف وكنت أحييها بتحية خفيفة ولكنها لطيفة فتفرح بذلك غاية وحدثت صديقي بشأنها فاهتم بها هو الآخر وصار يعطف عليها بالرغم من سكناها بجواره على حالتها المعلومة. ثم زاد احترامها لنا فجعلت لا تكلم أحداً حين حضورنا ولا ترد على من يخاطبها. وإذا كانت في مظهر غير محتشم كأن لبست بذلة بغير كمين أو مجيبة فانكشف ذراعاها أو برز صدرها بادرت فلبست سترتها فلا نراها المرة

الثانية على ما كانت عليه. وإذا كانت ثملة اختفت عن أنظارنا بتاتاً ولم نسمع لها صوتاً ما دمنا في المنزل. وأخبرني صديقي أنها حسنت من سلوكها كثيراً اعتباراً بحسن جواره ولم تعد تقبل عندها شخصاً من المهرجين والمثيرين للضوضاء. وأخبرني أنها تسأله عني كلما غبت عنه أو لم أمرر بشارعها ولو كانت الغيبة قصيرة.

ثم حدث ذات مرة أني أتيت لزيارة صديقي، وكان الوقت عشاء، فوجدتها في غمار الناس وسط الشارع وبيدها كأس من الخمر وهي تشرب وتغني غناءً حزيناً فتمزج دموعها بما في كأسها. وكانت قد لبست ثياباً أنيقة وتزينت بزينة بديعة وصحبتها شاب من أبناء جنسها، من هؤلاء الشبان الذين لا شغل لهم إلا ارتياد الحانات والطواف على بيوت الهوى ليلاً والذين يسمونهم في مصر (بلطجية). وحينما رأتني لم تختف على عادتها ولم تنقطع عما كانت فيه وقصدتني من بين الناس وجعلت تكلمني بلغتها التي لم تكن تحسن غيرها ولم أكن أنا أفهم منها إلا القليل وبعد لأي علمت أنها تعتذر لي عن الحالة التي هي فيها وتطري أخلاقي ونفسي التي لم تسترذلها قط ولم تزدرها كما كان يفعل الآخرون. وذكرت لي أن سبب ابتهاجها وطربها تلك الليلة هو الاحتفال بعيد الميلاد، إذ كانت هي الليلة السعيدة (Nochebuena) ليلة 25 ديسمبر.

ثم أمسكت بيدي وعزمت علي في الدخول لبيتها فجعلت أعتذر لها فلم تقبل وقالت لا تخجل من دخولك إلى بيت مومس، فإنها

وإن كانت كذلك في الظاهر لكنها في الواقع امرأة شريفة تبغض تلك السيرة وتود بجدع الأنف لو تقلع عنها وهي وإن كان جسمها دنسا فروحها طاهرة لا تأنس إلا بالأرواح الطاهرة. وقد رأت أن من تمام احتفالها بالسيد المسيح الذي حمى مريم المجدولية، من غضب الشعب أن تدخلني إلى بيتها فيأنس بروح هي منه وإليه في التسامح والمغفرة. ولم أجد بداً - إزاء هذا الإطراء - من مساعدتها فدخلت وقادتني إلى زاوية البيت حيث أرتني أيقونة العذراء وقد أوقدت عليها مصباحاً صغيراً ينيرها بأشعته اللطيفة.

ثم عرضت علي أن أشرب معها كأساً نخب العذراء وطهارتها حيث لم تجد من يشاركها هذا الشرف غيري. فبينت لها أننا معشر المسلمين لا نشرب الخمر فقال نبدلها بالقهوة، وكنت لا أشربها في تلك المدة تطبياً، فاستحييت أن أرفض ولم أقدر أن أقبل. وفهمت هي بغريزتها ذلك فقال نبدل القهوة بالغازوزة فقلت إن كان ولا بد ففي منزل صديقي المجاور حيث أني لا أريد أن يطول مكثي هنا. فنزلت على رغبتي وخرجت وذهبت هي إلى المقهى القريب وجاءت تحمل قوارير الغازوز على صينية صغير وقدمتها لي ولصديقي بنفسها وقالت إنها ستذهب لتشرب كأسها بقرب الأيقونة فوافقناها.

ولم نشرب نحن شيئاً بل ارقنا الماء تكريماً لروح السيد المسيح وجميع إخوانه من الأنبياء الذين حرموا مهر البغي.

يحيى بن دالي

كانت سنة 1842 حين احتلت الجنود الفرنسية، لآخر مرة، مدينة تلمسان العظيمة التي هي أدنى بلاد الجزائر إلى المغرب، نقطة فاصلة في تاريخ حياة كثير من الأسر التلمسانية التي هاجرت إلى المغرب وتديرته واندمجت في أوساطه العامة التي لم تكن تختلف كثيراً عن نظيرتها في القطر الشقيق.

وكان هذا الحائك العظيم النفس الكبير الهمة قد شاهد بعين الأسى والأسف سقوط وطنه العزيز بين يدي الاستعمار الأجنبي ورأى أن كل ما بذل من الجهود الصادقة لإنقاذه قد ذهب سدى. وكأن المقادير أقسمت لتنفذن أمرها وتنجزن وعيدها في هذه البلاد فليس بنافع شيئاً ما قام به الزعماء والقادة المخلصون، ومعهم الأنصار والشبان المتحمسون كحائكنا الشجاع من حملات قوية ضد هجمات الأعداء بل إن ذلك لم يزد نار الحرب إلا اشتعالاً. وقد تم النصر للعدو وتمكنت قدمه في البلاد فلم يبق طمع في خروجه منها. إذ ذاك شد حائكنا رحاله وزم ركابه قاصداً المغرب حيث السلطة والنفوذ والحكم المطلق لأبناء البلاد من إخوانه المسلمين.

وقصد فاساً العاصمة المغربية الجميلة والمدينة الأكثر شبهاً بتلمسانة المحبوبة من كلتا الناحيتين المادية والأدبية. ولذلك تخيرها الكثير من أهل بلاده المهاجرين إلى المغرب قبله وبعده.

فلما استقرت به الدار هناك فتح معتملاً للحياكة كما كان شأنه بتلمسان ولم يمض عليه إلا قليل حتى اشتهر بين العملاء بجده واستقامته ونجح بالتالي في كسب سوق الحاكة فكانت صنعته هي الممتازة والنافقة في السوق كلها. وبسط الله له الرزق وبارك له فيه فتزوج من إحدى الأسر الصناعية المحترمة وأقر الله عينه بالذرية التي ملأت فراغاً كبيراً في نفسه وفي بيته. فكان من أسعد الناس حالاً وأحسنهم اغتباطاً بنعمة الله وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: 100].

لم يكن يحيى بن دالي على شيء من الثقافة والعلم، وإنما كان شخصاً قوي الملاحظة صحيح التفكير. فكان يستعرض في ذهنه ما نزل ببلاده من المصائب والمحن ويحاول أن يعلل ذلك بعلل مقبولة. فبعد كثير من اللف والدوران يرد ذلك إلى سبب ديني محض ويركزه فيه ولا يشتبه في أنه هو الألف والياء في القضية. فيقول إن علة ما أحاط بنا من الانكسار والخذلان والخزي والهوان هو التحلل من ربقة الدين وإيثار العاجلة على الآجلة وترك التواصي بالحق والتواصي بالصبر. وهكذا يمضي في تبيين ما أجمله في تلك

الكلمة ولا يترك شيئاً من المنهيات التي يرى الأمة عاكفة عليها والمأمورات المضيعة إلا ذكره وتورك عليه في الاحتجاج لرأيه والاستشهاد على ما يذهب إليه.

وكان كثيراً ما يغتنم الفرصة المناسبة لإبداء رأيه هذا. فكلما رأى من أحد عملائه انحرافاً عن الجادة في المعاملة أو شهد في السوق خصومة تنشب من بعض المتبايعين، كلما فوق سهام ملامه إلى مستمعيه من الجمهور وقام مقام الخطيب يعظ الناس ويرشدهم كي يتخلوا عن هذه الصفات الذميمة ويتحلوا بالصدق في الأقوال والأفعال، قائلاً إن هذه الحال هي التي أفضت بالمسلمين إلى ما هم عليه من الذل والشقاء وغلبة العدو عليهم واستيلائه على بلادهم يحكم فيها كيف يشاء.

وقد كان البعض يتأثر من نصحه ويعتبر بكلامه والبعض ممن ران الجهل على قلبه وأعمى الغرور بصره يتهكم به ويثور في وجهه قائلاً لا تحسبن المغرب كالجزائر ورجال المغرب كرجالها إن لنا من الأعداد والعدد ما لو شئنا لدخلنا به "باريز" في صبحة واحدة. "والله يقوي حرم مولاي إدريس"! فينفض ابن دالي رأسه ويقول في يأس ظاهر: عسى أن تشاؤوا ذلك يا صاح:

وتمر الأيام سراعاً وتحدث أمور وتتجدد أحوال ويقع الحدث العظيم الذي يفقد به المغرب استقلاله سنة 1912 ويثور الجند وتجري مذبحة فاس ثم تقمع الثورة وينزع السلاح من أيدي

الوطنيين فمن لم يسلم بطيب خاطر أخذ منه قهراً ومن ذا الذي لم يسلمه للتو والساعة أو يتف منه انتفاء أبي القاسم من حذائه الثقيل؟

اللهم إلا شيخاً هرماً كان قد بلغ من الكبر عتياً، فلما دخل عليه أبناؤه يخبرونه بقرار السلطة العسكرية ويطالبونه بتسليم بندقيته المحلاة بالذهب بعد أن سلموا هم بندقياتهم ومسدساتهم وخناجرهم جميعاً، وقع عليه الخبر وقوع الصاعقة وبكى كما يبكي الأطفال. ثم قال لهم ائتوني بها لألقي عليها آخر نظرة، فلما قدموها إليه التزمها التزام الأم الحنون لوحيدها وجعل يشمها ويقبلها ويبكي وتخنقه العبرة ولم يشأ أن يعطيها إليهم على كثرة ما راودوه عنها وخوفوه وشاية الأعداء به وبهم وهو لا يزداد إلا تمسكاً بها وضماً لها وبكاء ونحيباً حتى أغمي عليه وبقي كذلك يوماً وليلة أسلم بعدهما الروح لخالقه وأسلم أولاده البندقية إلى السلطة.

كان ذلك الشيخ هو يحيى بن دالي نفسه الذي لزم البيت منذ أكثر من عشر سنين فلم يكن يعرفه حينئذ إلا قليل من الناس.

نظرات في كتب[1]

فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان

سفر جليل يقع في أكثر من 300 صفحة من القطع المستطيل طبع المطبعة الجديدة بفاس، يمكنني أن اقول عنه إنه أنفس ما أخرجته مطابعنا في هذا العام لما يحويه من الفوائد الأدبية والتاريخية.

إنه ليس كتاب تراجم فقط كما يفهم من عنوانه ولكنه كتاب أدب وتاريخ وسياسة أيضاً.

بيد أنه مفرغ في قالب من السجع رصين وأسلوب من الإنشاء الأندلسي متين. وبه ساغ للمؤلف أن يذكر من الوقائع والحوادث التاريخية تصريحاً أو تلويحاً ما لولاه لاضطر إلى تحريفه أو تناسيه بالمرة.

وبعبارة أوضح فإن هذه الطريقة مكنته من التعبير عما يكنه فكره من الأنظار والملاحظات بكل حرية وصراحة، فهذه مزية ذلك

(1) نشرت هذه النظرات بمختلف الصحف.

الأسلوب في نظري والعذر الذي نتقبله من صاحبه حيث إن عصر الفتح بن خاقان انقضى وانقضى معه ذلك الأدب الرسمي المتكلف.

أما مؤلف الكتاب فإنه ذلك الكاتب الكبير والأديب الشهير السيد محمد بن المفضل غريط ولا أزيدك به معرفة فإنه أشهر من أن يعرف وفضله الجم وأدبه الغزير لا أحسن في التدليل عليهما من قراءة بعض قصائده الرقيقة السلسلة العذبة أو قراءة كتابه الذي نحن في صدد التعريف به. ولقد أحسن بعض الأدباء حين أطلق عليه (أديب فاس) فهو الباقية الصالحة ممن أنجبتهم العاصمة الإدريسية من الأدباء على الطراز القديم.

يتناول الكتاب ترجمة حياة عديد من النوابغ في الإدارة والسياسة والأدب ممن عاشوا غالباً في القرنين الثالث عشر الماضي والرابع عشر الحاضر، لا يتعمق في البحث على تحليل نفسياتهم وتحديد منازعهم الفكرية والأدبية. وإنما يذكر ما تقلبوا فيه من الوظائف والخدمات التي أكسبتهم حنكة وتجربة وأهلتهم بعد لتولي المناصب الرفيعة من الصدارة والوزارة والحجابة التي لا يخلون عليها في الغالب من منازع أو كائد أو حسود حتى إنه لم ينج أحد منهم من نكبة أو سقطة أو عثرة. أولائك هم الوزراء وتلك هي أنباء الوزراء.

أما الكتاب فيقول لك عما خصوا بالإجاة فيه من غنى النظم والنثر ويأتي بشذرات من أخبارهم ومنتجات أفكارهم وربما أتى في

بعض المرار بتفصيل نشأة المترجم وحالته في التدرج من ضعة إلى رفعة ومن خمول إلى ظهور مما تظهر فائدته ونتيجته في تعرف شخصية المرء والبحث عن أطوار حياته منذ الصغر.

هذا منهج الكتاب وأسلوبه الذي سار عليه في ترجمة الأشخاص منذ البدء إلى الختام وهناك ناحية أخرى من نواحي الكتاب لا يجمل بنا أن نمر عليها من دون أن نلقي عليها نظرة كاشفة لما لها من الأهمية التاريخية ولأنها الوحيدة التي تهم المؤرخ والأديب كما تهم أحد أفراد الطبقة المستنيرة من الأمة، تلك هي الوقائع والحوادث التاريخية التي جرت على عهد المترجمين وما كان موقف الواحد منهم بإزائها وما عمله من صالح نافع أو سيئ ضار.

فهذه الناحية من أخص نواحي الكتاب الجديرة بإطالة التأمل وإنعام النظر. وترى المؤلف فيها يختصر ويسهب، ويتحفز ويثب، بحسب المناسبة وعدمها وانفساح الطريق وضيقها ولا نلومه على شيء من ذلك بل نعجب بمقدرته البيانية وعبقريته الفكرية حتى تأتي له ذكر ما لم يجرؤ أحد على ذكره ولا التحويم حوله، مرتئياً منتقداً في كل ما يصح الارتياء فيه والانتقاد مصرحاً تارة وملوحاً أخرى مظهراً تأسفه طوراً وطاوياً على كمد طوراً آخر.

فلما أحسن قوله بعد أن أتى بنص الكتاب السلطاني الذي استصدره الوزير ابن سليمان في شأن إصلاح حالة العمال وتوظيف

الترتيب وتنظيم الجبايات التي يراها كافية ومغنية عن عقد القروض الأجنبية المطوحة بالبلاد في مهاوي الإفلاس: "وأجب بها من خطة لو أنتج قياسها. وأثمر غراسها" وقوله في وصف ثورة العساكر المخزنية التي عقبها احتلال فاس وبسط الحماية بعد أن أتى على وصف الحالة الاجتماعية السيئة التي كانت عليها الأمة عهدئذ بعبارة مؤثرة تستنزف العبرات وتستتبع الزفرات: "ولم يزل أولائك الشباب. يلجون من الشهوات كل باب إلى أن بلغت المهلة مداها. فنبهتهم صيحة طبق المعمور صداها. فبينما الناس في عيش مريع. وابتهاج بفصل الربيع. إذ تسبب عسكر التنظيم. في حادث عظيم. أربى على ما تقدمه من الحوادث، واستثقله الجاد واستخف به العابث" إلخ.

وإن ما يشجيك كثيراً ويملك عليك مشاعرك هو الإخلاص المتدفق من يراع هذا الكاتب القدير والوطنية المتجسمة في كل جملة من جمله، فإنك إذا استرسلت في المطالعة وكنت رهيف القلب رقيق العاطفة لا شك تستبقك العبرات أو تتحجر في مآقيك حتى لا تعود تبصر إلا سواداً في سواد مما يتركه في نفسك من الأثر العميق ذلك الوصف الدقيق لما أحاط بالأمة من البلايا والمحن بسبب التهاون والتفريط. ولولا خوف الإطالة لجلبت لك ها هنا نماذج من ذلك، ولكن ارجع أنت بنفسك إلى الكتاب فإنه بمتناول يدك إن شئت.

ولا نغفل عن خاصة أخرى من خواص الكتاب وهي أن المؤلف كثيراً ما يسدد سهام الطعن والملام إلى الخونة والمنافقين باعة الضمائر واتباع الناعقين ولا يألوا جهداً في فضيحتهم والتشنيع عليهم والتشهير بهم وإظهار ما ارتكبوه من الجنايات الفظيعة على الأمة والوطن وما جروه على المسلمين من الويلات والمحن بسبب تذبذبهم وضعف إيمانهم سالكاً في ذلك منهجه المألوف وسبيله المعروف. ومما يحسن إيراده هنا قوله بعد أن ذكر البيعة الحفيظية وما كان لها من أثر سيىء في مختلف الأندية والمجتمعات وما أثير حولها من ضجة كبيرة بفاس؛ "وتولى كبرها أفراد منهم من نشلة المخزن من وهدة الخمول واقتنى من نعمة الموضوع والمحمول. فذب عن صوانها. بكفرانها. ومنهم متبجح أرهق نفسه عسراً. واتخذ النفاق جسراً. فأصاب خسراً. ألف وصنف فما قرط ولا شنف. بل باء بها شنعاء غادرته يلتمس الجدران ويجتزي عن لقاء الإخوان، بمجالس النسوان ويطرق إطراق الأفعوان. ينتظر للوثوب الأوان. إلى أن رفع سربه. وانقطع من حوض الحياة شربه. شأن الآخر والأول من القومة في تأسيس الدول. وقد كان لبرق الولاية شائماً. وعلى مورد الرياسة حائماً. فأتاه الشر من حيث قدر ضده. وأصابه السهم من حيث لا يملك رده. ومنهم مستظهر بأقوام. وحاشية وخدام. يرسل الكلاب على البقر، ويستميل من بغي وعقر. ومنهم فقير عائل.

ينظر إلى قول القائل:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ نـصيب ولاحـظ تمنـى زوالهـا

وظهـرت رجـال، فـتح لهـم فـي ممـوهـات الأقـوال، بتقلبـات الأحـوال، بـاب التـروي والارتجـال. وأصـبح أعـلام الفقهـاء، تحـت أحكام السفهاء. ورؤوس الأغنياء، في قبضة الأغبياء" الخ.

أما قيمة الكتاب الأدبية فلقد أسلفنا لك عن أسلوبه وطريقته ما فيه غنية، وقد تكون استطعت أن تلمس حقيقة ما وصفناه به من النظر في هذه الفقر التي جلبناها لك نظر تأمل وإمعان ونزيد فنقول إن كل ما فيه للمؤلف من أثر، هو أرقى وأعلى مما فيه لغيره.

هذا ما للكتاب ولدينا عليه بعض المآخذ لا بد من الإشارة إليها ليلاً نتهم بالميل والتحيز للمؤلف وإن كان ليس بيننا وبينه إلا إخوة الإسلام ورابطة الأدب:

1 - إغفاله لبعض المشاهير وكان يجب أن يأتي بهم في طالعة الكتاب كأبي القاسم الزياني الذي ليس في المذكورين من خدم الدولة ونصح لها وأخلص مثله، كيف وقد كان السفير والوزير والمشير؟ وكالمرحومين الأديبين السليماني وابن المواز. فإن قيل إنه لم يذكر المعاصرين فكيف يجاب عن عبد السلام المحب أو ليس معاصراً؟

2 - سوء التقدير والاختيار في بعض المواضع، ويظهر ذلك بالمقارنة بين ما وصف به المولى عبد السلام المحب ومن وصف به

الكردودي ويقياس ما أثبته للوزير ابن إدريس والكنسوس من الآثار الأدبية الضعيفة على ما لهما من آثار أخرى قوية لم يذكرها.

3 - فحش الأغلاط المطبعية التي لم يخل منها مؤلف صدر في هذه الأيام وذلك مما يؤسف له جداً فهل لأصحابها أن يتداركوا هذا الخلل فيصلحوه لا بوضع جدول الخطأ والصواب في الآخر ولكن بحذفه البتة.

وما عدا هذا فما في الكتاب ما ينقد، وإننا نجدد للمؤلف عبارات الشكر والامتنان على هذه الطرفة النفيسة التي أتحف بها الخزانة المغربية ونستحث همته للمثابرة على إصدار بقية كتبه النفيسة.

كتاب الجزائر

الأستاذ أحمد توفيق المدني شخصية بارزة بين أدباء الشمال الإفريقي يمتاز بالنشاط الدائم وحب العمل والتفاني في خدمة الوطن خدمة نافعة باقية. وهو من الكتاب الموهوبين المخصوصين بوفرة الإنتاج وجودته. وأسلوبه أسلوب الصحافي القدير الذي يعرف أنه يتحدث إلى جمهور الشعب فلا يسمو حتى لا يفهمه إلا الخاصة من القراء ولا يسفل حتى يضيع الغرض الأساسي من التصدي للإصلاح وهو تثقيف أفكار الشعب وتغذية عقولهم بما يعود عليهم نفعه من أدب وحكمة.

عرفناه من كتابته في الصحف وتقويم المنصور الذي يصدره الفينة بعد الفينة فيحوز رضا كافة القراء. وأول ما يعجبنا فيه جهاده الصادق في سبيل فكرته التي لا تتبدل ولا تتحول بل هو بذاته فكرة توحي إلى متدبرها بكثير من معاني الإخلاص والوطنية وحب العمل. ولا نقول هذا رعياً لصداقة ولا زمالة وإنما إنصافاً وتقديراً لرجالنا العاملين.

وأخيراً حمل إلينا البريد كتاب الجزائر الذي نوهت به الصحف وأثنت على مؤلفه الفاضل كثيراً. وكنا نظن أنه واحد من تلك الأدلاء التي تحشر فيها أسماء المدن وما تحويه من آثار ومرافق تفيد في

أثناء السفر وتنقل الإنسان من مدينة إلى مدينة ولا يتعدى نفعها هذا الوجه.

فسرعان ما كان ظننا خاطئاً إذ وجدنا أن الأستاذ المدني هو الأستاذ المدني سواء كان ما يكتبه دليلاً أو غيره. وأن كتاب الجزائر هو حقاً "تاريخ الجزائر إلى يومنا هذا وجغرافيتها الطبيعية والسياسية وعناصر سكانها ومدنها ونظاماتها وقوانينها ومجالسها وحالتها الاقتصادية والعلمية والاجتماعية" وأن الفكرة الوطنية التي لا يبرح الأستاذ المدني حاملاً لواءها مبثوثة في تضاعيف الكتاب بل منشورة على وجه الغلاف ملخصة في ثلاث كلمات هي: الإسلام ديننا. الجزائر وطننا. العربية لغتنا. بل إن هناك عبارة أخرى هي أدل على المراد من كل ما عداها وهي التي تخبرنا عن طبع الكتاب على نفقة الأمة الجزائرية فهل تريد أكثر من هذا دليلاً على الشعور الحي والتوثب للنهوض وصل بقي الشك يخامرك فيما قلناه من أن الأستاذ المدني فكرة بنفسه؟

ليس لنا ما نأخذه على الكتاب بعدما قرأنا جميع الانتقادات التي وجهت إليه ومنها ما ليس له وجه، إلا هذه النقاط القليلة.

1- ما ورد في ص 20 في حوادث سنة 140 هجرية من ظهور أبي قرة الصفري بتلمسان واجتماع البربر حوله منفصلين عن مذهب مالك معتنقين مذهب الإباضية الخ فإن مذهب مالك في ذلك الحين لم يكن انتشر إلى حد بلوغه الجزائر بل لم يكن استتم تكوينه بعد،

إذ إن صاحبه الإمام مالكاً رضي الله عنه في ذلك الحين، كان لا يزال في متصف حياته، والحق أن دخول المذهب المالكي إلى المغرب جميعه إنما كان بعد ذلك التاريخ بكثير.

2- قوله في نفس الصفحة: "في هاتيك الأثناء أسس المولى إدريس الأكبر الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى وجعل فاساً عاصمة لها" وفيه غلط من وجهين، فالمولى إدريس الأكبر لم يؤسس الدولة الإدريسية إلا سنة 172 وليس هو الذي أسس فاساً وجعلها عاصمة وإنما ولده إدريس الأزهر وذلك سنة 192.

3- في ص22 وردت هذه العبارة "تأسيس الدولة البربرية الإسلامية العظيمة دولة بني الأغلب" الخ ودولة بني الأغلب لم تكن بربرية ولم تمت إلى البربرية بسبب ما، فرجالها عرب أقحاح وصبغتها كانت عربية صرفة حتى إن التمدن العربي قد ازدهر على عهدها في الجزائر أيما ازدهار وسبقت في ذلك القطرين الشقيقين تونس والمغرب.

4- في ص 91 عد المؤلف العلامة المؤرخ الشريف سيدي محمد بن الطيب القادري مؤلف نشر المثاني وغيره، من نبغاء الجزائريين وهو وهم فإن المذكور من أهل فاس وولد بها سنة 1124 وتوفي سنة 1187 وهو من مفاخر السادات القادرين بالمغرب.

ودون هذا فليس لنا ما نقوله إلا أن نتمنى أن يكون لكل من المغربيين الأدنى والأقصى مثل ما للمغرب الأوسط كتاب الجزائر.

ديوان زكي مبارك

كان عهدنا بالدكتور زكي مبارك أنه ذلك العالم البحاثة والناقد الأديب الذي يطالعنا بين آونة وأخرى بدراسة من دراساته الشائقة وأثر من آثاره الطيبة التي يتناول فيها ما شاء من موضوعات الأدب وتراجم الأدباء فيحلله تحليلاً فلسفياً دقيقاً ويحوله إلى طرفة فنية عديمة النظير، ولم نكن نعهده شاعراً وإن قال البيت والبيتين من الشعر، لأنه قل من أئمة الأدب من لم يجش صدره يوماً بالمعنى الشعري فينفثه لسانه نظماً متزناً لا يقل عن نظم الشعراء إلا أن ذلك لا يجعله شاعراً بحال.

وليس معنى هذا أن بين العلم والشعر منافاة فإنه لا مانع من أن يكون العالم شاعراً والشاعر عالماً، بل إن ذلك من المتمنيات الغالية التي ما تحققت إلا ورفعت من شأن العلم والأدب معاً. خصوصاً في هذا العصر الذي طغى فيه سيل العلم على الشعر فغمره حتى لم يعد يظهر منه إلا الأطلال والخرائب التي لا تحيي نفساً ولا تجدد أنساً. وذلك بسبب تخلف ركب الشعراء عن موكب العلماء الذي طاف الأرجاء وحلق في الأجواء فليس للشعر من ينهضه من كبوته إلا أولائك العباقرة الأفذاذ من أهل العلم الذين يستطيعون أن ينفخوا فيه الروح فيحولونه من مادة جامدة إلى قوة حية تناسب ذوق العصر وتروي غلة الإنسانية الظامئة. بل العلم نفسه في حاجة إلى الشعر الذي يروق ماديته الكثيفة ويصقل ميكانيكيته الباهتة.

لكن العلم أصناف، منه ما يقبل هذه المهمة بصدر رحب ويسلس القياد لصاحبه فيطوف به على معالم الحقيقة ويكشف له مجاهل الحياة، ثم يتركه لنفسه يفتن ويبدع ويخلق ويصور.

ومنه ما يأبى على صاحبه أن يدخل هذا المدخل ويجمح به فيبتعد عنه أقرب ما كان إليه. وهذا العلم - مع الأسف - هو نصيب الدكتور زكي مبارك من العلوم.

فالدكتور ناقد أدبي له أن يحدثنا عن المذاهب الأدبية قديمها وحديثها ويرجح بينها ويصوب منها ويخطئ، وله أن يقول لنا إن هذا الشاعر يجيد وهذا ليس كذلك، وأن عمر بن أبي ربيعة متصنع في شعره كاذب في دعواه الغرام وإن أبا نواس كان سيىء الأخلاق والبحتري كان قذر الثياب والمعري كان من الملحدين، والمتنبئ كان صعلوكاً يتصيد المال وهو يدعى سمو الملوك إلى غير ذلك. أما أن يقول لنا أنه شاعر أيضاً فإننا ننغض إليه رؤوسنا ونقول كيف ذلك؟

كيف انفرد الدكتور بين النقاد بهذه المزية التي فاتت كبارهم وتركت غالبهم عليها متحسرين؟ فإن هؤلاء القوم لكثرة ما حفظوه من الأشعار وشدة بصرهم بعيوب الشعر أصبحوا لا يقدرون على نظمه وإن قدروا لا يقدمون على ذلك لعدم رضاهم إلا عن الجيد منه وهو قليل وقليل جداً وأمامك شاهداً على ذلك المبرد والجاحظ وابن قتيبة وطه حسين شيخ زكي مبارك. ولقد قال الخليل بن أحمد لرجل سأله ما لك لا تقول الشعر؟ فقال الذي يأتيني لا أريده والذي أريده لا يأتيني. ولكن رغماً عن ذلك فالدكتور مبارك قد طالعنا بديوانه وأبى إلا أن يضيف إلى ألقابه الضخمة لقب شاعر أيضاً فلنقيده في قائمة الشعراء ولننظر في قيمة هذه الشاعرية المغتصبة.

يظن الدكتور أن عيشته الشعرية التي يعيشها كما يقول كافية لأن تجعل منه شاعراً موهوباً يتمنى أصدقاؤه لو انقطع إلى الشعر وانصرف عن الدراسات الأدبية. وهذا لا يصدق دائماً فكم من أناس يعيشون حقيقة عيشة شعرية لا يحلم بها الدكتور ومع ذلك لا نصيب لهم من الشاعرية ولا يدعون هم لأنفسهم منها شيئاً. وعلى هذا الظن تنبني شاعرية الدكتور فقل ما شئت في زخرفة لفظية وليونة مصطنعة تحاول أن ترغمك على الاعتراف بأن صاحبها شاعر وأن شعره هو وصف عيشته.

وهنا نحب أن نثبت ملاحظة طالما ترددت في فكرنا على هؤلاء الشعراء الذين يتبجحون باسم التجديد ولا نزال نطلب أثراً لهذا التجديد في أشعارهم فلا نلقى إلا ألفاظاً مترجرجة ومعاني فجبة يشهد الله أن بينها وبين الشاعرية بعدما بين السماء والأرض. وكأن الشاعرية عندهم هي الوجد والشوق والهيام والأنين والنحيب والبكاء فلا تكاد تجد لهم إلا هذه الألفاظ موصوفة بعضها بإزاء بعض فلو لم تلق بذلك الشعر من يدك سريعاً لما استطعت يومك أن ترد إلى نفسك نشاطها وخفتها لما يحدثه ذلك الشعر فيها من الجهامة والانقباض.

ولعل ديوان زكي مبارك هو الرابع أو الخامس من الدواوين التي نشرت هذا العام فقط وكانت تلك صفتها.

يا قوم إنه ليس من شعراء العربية من قصر نفسه على الغزل إلا فرداً واحداً ليس له مكان كبير بين المشتهرين منهم وهو العباس بن

الأحنف ومع ذلك فأين أنتم من حسن ديباجته وسمو معانيه وباقي الشعراء كلهم لهم جولات في ميادين الحياة الغاصة بالمواد الشعرية التي لا تنضب، وذلك لأن النفوس ليست كلها على نسق واحد في الشعور والوجدان فكم من الناس يفضل قصيدة في المدح يتبين خلالها الأخلاق الحميدة والسجايا الكريمة تترقرق مائيتها في صفاء اللفظ المصقول على قصائد من شعر الدموع والنشيج.

يا قوم إن الأمة العربية اليوم على أبواب نهضة عامة تتناول جميع الشؤون الأدبية والاقتصادية والسياسية فغذوا عاطفتها بما يقوي حيويتها وغنوها بالألحان المهيجة والمفرحة ولا تقتلوها بسم ضعفكم الخلقي وتصوراتكم المريضة. إنكم مع دعواكم العريضة لم تسدوا بعد الفراغ الذي أحدثه موت المرحومين شوقي وحافظ.

وظاهرة أخرى من ديوان زكي مبارك تجعلنا نعجب إلى أي حد بلغت الفتنة بهؤلاء المجددين حتى ظنوا أن كل كلمة ينطقون بها آية من آيات الحكمة ومعجزة من معجزات البلاغة يجب أن تخلد ويحفظ تاريخها للناس. فتجد مثلاً هذين البيتين في ديوان الدكتور المبارك وهما كل ما في صفحتهما:

أحبك يا ظلوم ولا أبالي أأكرم في غرامك أم أهان
فإن بخل الزمان بكم علينا فصبراً للذي صنع الزمان

قد كتب تاريخها هكذا: (11 نوفمبر 1913) وتجد كثيراً من الأبيات غيرهما التي لا ترتفع عن طبقتهما كذلك. بل تجد الشاعر في بيتين آخرين يفيدنا أنه غلط في تاريخهما في كتابه ذكريات باريز وأنه قد اهتدى الآن إلى تاريخها الحقيقي!

وهذا الأمر أذكرني بمحاورة لطيفة جرت بين أديبين من أصدقائنا عادة أحدهما أن يؤرخ شعره وعادة الآخر أن يمضي باسمه واسم أبيه وجده. فنشر الأول[1] ذات يوم قطعة يمدح بها أحد الولاة وأرخها على العادة فقال الآخر مالك إذا قلت بيتاً من الشعر تؤرخه كأنك بنيت القرويين! فأجابه الثاني وأنت مالك إذا كتبت سطراً وقعته (بشجرتك)! وهي نكتة في محلها ولقد نصح الذي قال:

ويسيء بالإحسان ظناً لا كمن هو بابنه وبشعره مفتون

هذه نظرة كلية في الديوان وننظر في جزئيات نستغرب صدورها من مثل الدكتور في ذوقه الأدبي وتحقيقه اللغوي وهو كاتب البدائع وعمر بن أبي ربيعة وشعره وشارح زهر الآداب والرسالة العذراء يقول في ص35.

وأنكى عدوك في النائبات عدو تقاصر عنه الجنن

والجنن وسيلة دفاع لا وسيلة هجوم فالتعبير يتقاصر فيه قصور.

وجاء في ص55:

زمان الصبا هلا عن الغي ناهياً

فأدخل هلا على ما لا تدخل عليه ونصب ناهياً بما لا دليل عليه في اللفظ ولا يتجه في التأويل إلا بتمحل.

---

(1) الأول هو السيد محمد بودقة (راجع مقال أديبين) والثاني هو السيد عبد الله ابن محمد بن الهاشمي.

وجاء في ص61:

ولـو فقـه النيـل المبـارك قـدرها   لحـول ذيـاك المـزيج إلـى خمـر

والبيت من قطعة للشاعر في أحد شيوخه يصف بها بحوثه الأدبية، والمزيج هنا المراد به الماء. ولم نر أحداً أطلق على الماء مزيجاً رغم قول العلماء أنه مركب من الأوكسجين والإيدروجين فلو قال القراح بدل المزيج لكانت أخف.

ويقول في صفحة 67 تحت عنوان التهمة بالحب:

عجبت لهم أنى رموني بحبها   ولا مهجتي رهن لديها ولا قلبي

فيا رب صدق في هواها عواذلي   فـإن عنـاء أن ألام بـلا ذنـب

وإلا فـلا تقطـع علـيّ ملامهـم   فـإن مـلام المـرء فاتحـة الحـب

وما أدري كيف كانت هذه التي احتاج الدكتور إلى الدعاء بأن يحييها الله إليه ويصدق في هواها عواذله؟ لا شك أنها كانت (ببع) الهوى وغول الغرام. ولكنا لا نملك للدكتور إلا أن نطلب الله عز وجل معه أن يستجيب دعوته! ولعله رأى أقوال الشعراء في التهمة بالوصال فحورها هذا التحوير "المبارك".

وبعد، فننصح للدكتور زكي مبارك أن لا يثق جداً بأصدقائه الذين تمنوا عليه أن ينقطع للشعر وينصرف عن دراساته الأدبية ونهدي إليه أزكى سلامنا وأبركه.

نداء للجنس اللطيف يوم المولد الشريف

في الهند جمعية تسمى جمبعة ذكرى يوم النبي أي يوم المولد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام وهو يوم 12 ربيع الأول على المشهور تقوم بعمل عظيم في إحياء دعوة الإسلام وإذاعة مناقب صاحب الرسالة ﷺ، وهو تكليف كبار العلماء المفكرين من الأقطار المختلفة بتأليف رسائل في هذا الموضوع تنقل إلى أشهر اللغات الحية في الشرق والغرب وتنشر كل سنة في ذلك اليوم العظيم كما أنهم يلقون فيهم محاضرات وخطباً أخرى بجميع اللغات في جميع الجهات.

وقد كلفت هذه الجمعية العلامة الحجة السيد رشيد رضا بكتابة رسالة في هذا الصدد لتنشر يوم النبي. فألف الرسالة المحدث عنها وهي "نداء للجنس اللطيف" بين فيها حقوق النساء في الإسلام وحظهن من الإصلاح المحمدي العام وقد حرر فيها الكلام على مسألة تعدد الزوجات والتسري والحجاب والسفور والطلاق وما يتعلق بأزواجه عليه السلام من الأحكام والحكم وتكريم النساء وبر الوالدين وتربية البنات وغير ذلك ودفع في وجوه القاصرين بكثير من الشبه التي يوردونها على هذه المسائل مستدلاً بما لا يقبل الطعن من شواهد العقل والنقل.

ومن الفوائد التي تضمنتها هذه الرسالة القيمة التنبيه على أن حديث طلب العلم فريضة على كل مسلم، لم يرد فيه لفظ ومسلمة كما هو الشائع وإن كان يشمل المسلمات باتفاق علماء الإسلام لما أن النساء شقائق الرجال في الأحكام. ومنها أخذ تحريم الإجهاض أي تعمد إسقاط الجنين لأي سبب من الأسباب من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ [الممتحنة: 12] في آية المبايعة.

وقد ذكر من حقوق النساء السياسية في الإسلام أمان المرأة للحربيين وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر ومبايعتها كالرجال للسلطان وهو موضوع متسع انبسط فيه علماء الإسلام حتى لقد أجازوا توليتها للقضاء كما قال بذلك أبو حنيفة في الأموال دون القصاص ومحمد بن الحسن وابن جرير الطبري مطلقاً.

ولسنا الآن بصدد شرح هذا الموضوع وإنما مرادنا التنبيه على أن البحث فيه ما زال لم يستكمل الأطراف حتى عند السيد رشيد. ولكنه معذور بضيق الوقت الذي ألف فيه الرسالة وإلزامه بالاختصار الممكن من أجل تيسير الترجمة.

وأشار المؤلف في مسألة التسري إلى أن أم الولد تعتق بمجرد موت سيدها ولا يجوز شرعاً أن تكون مملوكة لولدها بمقتضى إرثه لوالده. ثم قال وفي بعض الآثار أنه يحرم بيعها منذ ولادتها وهذا هو

صحيح مذهب مالك رحمه الله حتى جعل مصيبتها أن يبعث من بائعها كما في مختصر خليل.

وبالجملة فإن هذه الرسالة فريدة في بابها ككل ما يتوفر الشيخ رشيد عليه ونقول لرجال العلم من المغاربة هل لنا أن نساهم في عمل جميعة ذكرى يوم النبي بما يكون فيه إشادة بفضل الإسلام وإسم قطرنا المغربي العزيز؟

نظرات الشورى

الأستاذ محمد علي الطاهر صاحب ومحرر جريدة الشورى التي كانت تصدر بمصر قبل ثلاث سنوات، فرد من أفراد العالم العربي وطنية وجهاداً وإخلاصاً في الجهاد. وجريدته المذكورة كان لها اعتبار خاص لدى الشعوب الإسلامية عامة لأنها كذلك كانت لها عامة. فكما كانت تدافع عن القضية الوطنية الفلسطينية كانت تدافع عن مصالح المسلمين في جاوة وغيرها.

ولما تعطلت أو أوقفها الأستاذ صاحبها من ذات نفسه بقي قراؤها متعطشين لذلك المشرع الروي الذي كانوا يبلون به صداهم فجف على حين اشتداد الغلة. وقد أبى الأستاذ أن يقطع الصلة بينه وبين قرائه وأن تقطع سببها فأخرج كتابه (نظرات الشورى) الذي هو مجموعة مصغرة للشورى في سنيها الثلاث التي توقفت فيها عن الصدور، فقل ما شئت في وطنية صادقة وغيرة شديدة ودفاع حار.

والكتاب فوق ذلك سجل مهم لأعمال المؤتمر الإسلامي العام الذي انعقد في فلسطين منذ سنتين، لم يدع صغيرة ولا كبيرة من

أعماله إلا أحصاها. وقد كان المؤلف ممن حضره وشارك فيه مشاركة فعلية بفكره ويده. كما أنه مرآة ممثلة للحالة العامة في فلسطين الشهيدة يلهب شعور القارئ ويثير غضبه على ما يقاسيه إخواننا العرب في بلادهم من الشدائد.

وبالجملة فهو من الكتب التي يلزم كل مسلم مهتم بأمر الإسلام أن يطالعه ويضعه في خزانته بجنب حاضر العالم الإسلامي ولماذا تأخر المسلمون . إلا أننا لا نأخذ برأيه في بعض الزعماء المسلمين وننصح كذلك للقارئ أن يتثبت في هذه المسألة وحدها.

على هامش السيرة

ربما يظن القارئ أن هذا الكتاب حاشية أو شرح أو تقرير على السيرة حسبما يفهم من اسمه، ولكنا نبادر فنحقق له أنه ليس كذلك وأن أفهم اسمه ذلك، وإنما الدكتور طه حسين مولع بالتجديد. والتجديد عند أصحابه في كثير من الأحيان يكون معناه الإغراب فاجعل أنت هذا الإسم من قبيل ذلك التجديد. وهذا إذا أحسنا الظن ولم نقل أنه اقتباس من الأستاذ الفريد أورشيم بجامعة أكسفورد صاحب كتاب على هامش سيرة المسيح.

وكتاب دكتورنا هو مختصر للسيرة لا أقل ولا أكثر ولكن أهميته في كيفيته هذا الاختصار لأنه مختصر لا كالمختصرات. مختصر ليس وكده في سرد الحوادث مهما دقت أو جلت وعلى أي صفة تأتت ليكون جامعاً مانعاً ويكون مع ذلك سهلاً ممتنعاً، بل هو مختصر لكونه مجموعة صور ممتعة يتمثل منها القارئ حقيقة السيرة في هنيهة يسيرة يقضيها في مطالعته فلا يصدر عنه إلا بفهم سديد للسيرة وشوق شديد للسيرة ولهذا المعنى قصد المؤلف كما قال في مقدمة الكتاب: "فإذا استطاع هذا الكتاب أن يحبب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة وكتب الأدب العربي القديم عامة والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة فأنا سعيد حقاً، موفق حقاً إلى

أحب الأشياء إلي وآثرها عندي" وهنا يحق لنا أن نصرح بفكرة طالما اختلجت في أذهاننا ولم نلق مناسبة لنشرها وإن كنا بحثنا بها لكثير من الإخوان وتحدثنا بها في كثير من المجالس وهي أن السبب في كثير من الإلحاد المنتشر بين الشباب هو إهمال كتابنا الموهوبين لهذه المواضيع المتعلقة بالدين وإعراضهم عنها إعراضاً كلياً حتى إذا اضطروا إلى الكلام على شيء منها قصداً أو عرضاً تكلموا عليه كما يتكلم الباحث الأجنبي الذي لا يعنيه منه شيء ولا يتصل منه بشيء على العكس من كتاب الغرب فإنهم ولو بلغوا ما بلغوا في الإلحاد لا يزالون يصطنعون الدين في كتاباتهم.

ولا نبالغ إذا قلنا أن من مميزات الأدب الغربي في هذا العصر وفي كل العصور الروح المسيحية المنبثة فيه جملة وتفصيلاً حتى إن هذه الروح قد تسربت إلى كثير من أدبائنا العرب والمسلمين بكثرة ما قرأوه من الآثار الأدبية الغربية فاستعملوا كثيراً من التعابير وكثيراً من المعاني التي لا يفهمها أصلاً من لم يكن على اتصال تام بالحركة الفكرية العصرية في الشرق والغرب. وهذه إحدى قواصم التقليد الأعمى وآثام التجديد السطحي الممجوج.

ومن نتائج هذه العناية بالدين عند كتاب الغرب، بقاء المسيحية إلى الآن منتشرة في أوروبا وأمريكا مع ما هي به من عدم الملاءمة البتة للرقي العصري. وما ذاك إلا لما يكسوها به المصور والنحات والكاتب والشاعر في الغرب من معاني الجمال والجلال وما يستهوي به الجميع

عقول أهلها مما يفيضونه عليها من سحر الخيال. فأين هذا عند أدبائنا الذين يستحيون أن يذكروا لفظ الدين وأن يكتبوا في موضوع يمت بسبب إلى الدين إلا أن يكون هدماً للدين؟

الحقيقة أن العصر الذي نحن فيه عصر يسود فيه الباطل على الحق والناس قد ألفوا الباطل وأنكروا الحق فلا يعرفون شيئاً من الحق إلا إذا لون بلون من الباطل. والإلحاد هو من الباطل بل هو أبطل الباطل والدين هو من الحق بل هو أحق الحق ولكن لا بد في إظهار حقيته اليوم من الاعتماد على جانب من الباطل وذلك هو البيان الذي قال فيه النبي ﷺ: "إن من البيان لسحراً".

ويعلم الله كم كان سرورنا عظيماً وفرحنا جسيماً لما أخذ الدكتور محمد حسين هيكل يكتب "حياة محمد" والدكتور حسين الهراوي يكتب "التحليل النفسي لحياة محمد" لعلمنا بأن الأثر الذي تحدثه كتابة هذين العالمين في نفوس كثير من الشبان لا يمكن الحصول عليه ولو تضافر علماء الأزهر جميعاً على الكتابة في موضوعهما أولاً لقوة أسلوبهما ورونقه وجماله. وثانياً لثقة الكثير من القراء بهما وخصوصاً جمهور الشباب.

على هذا الأمل أخذنا كتاب (على هامش السيرة) فقرأناه فوجدناه قطعة فنية بارعة، قل قصة أو كالقصة لأنه يحتوي على الشيء الكثير من أدب القصة. وعلى كل فهو موضوع وضع القصة ولا أدل على ذلك من هذا الاهتمام الكبير بتسلسل حلقات البحث الذي يعبر عنه القاص

بوحدة الموضوع، حتى إن الفصول الخمسة (القضاء) (الردة) (الطاغية) (البشير) (راهب الإسكندرية) التي تبلغ ثلث الكتاب وهي استطراد محض، إنما كتبها المؤلف محافظة على هذه الوحدة كما يدرك ذلك من قرأ الكتاب وإن لم يصرح المؤلف بذلك في المقدمة.

فنحن نظراً للنتيجة التي سيأتي بها كتاب الدكتور طه من الناحية المذكورة نقول إن كتاب هامش السيرة هو أطيب كتب الدكتور لا سيما إذا اعتبرنا الآراء المعتدلة التي ضمنها مقدمته والتي تعد بحق من إملاء التجارب على الدكتور فلا يسعنا هنا إلا أن نهنئ دكتورنا بهذا التوفيق حاثين له على إصدار بقية أجزاء الكتاب في أقرب وقت.

ذكرى الدكتور محمد بن أبي شنب

ابن أبي شنب نابغة من أبناء القطر الجزائري الشقيق لا يجهله أحد من المشتغلين بالأبحاث التاريخية والأدبية فإنه طالما أمدهم بنفائس الأسفار التي كانت معدومة أو كالمعدومة فأخرجها للناس تزهو في حلل قشيبة من الطبع المتقن والتصحيح الكامل ولم تقف أعماله عند حد النشر فقط بل قد ألّف كثيراً من الكتب وحرر جملة من المباحث في اللغة والأدب والتاريخ.

وكان يتقن اللغة الفرنسية والإيطالية والتركية والفارسية والعبرانية زيادة على لغة بلاده القومية وهي العربية. وأسرته تركية الأصل ولكنها انتقلت إلى الجزائر منذ قرن تقريباً وقد ازداد هو سنة 1286 في بادية مدينة المدية وتوفي سنة 1347 في مستشفى مصطفى باشا بمدينة الجزائر. فانتدب أحد أبنائه الروحيين وهو الأديب عبد الرحمن بن محمد الجيلالي لتخليد ذكره بهذا الكتاب المفيد فاستوفى فيه ترجمة الدكتور كما يجب منوهاً بعمله وأخلاقه وآثاره صادراً فيه عن قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤﴾ [الأنبياء: 94] وقد أفاد وأجاد وبلغ من شكر الصنيعة وآداء الواجب غاية المراد.

والكتاب مكتوب بلغة سهلة إلا أن فيه بعض تعابير لا تصح لغةً ونحواً سواء في ذلك كلام المترجم (بالكسر) والمترجم (بالفتح)

وأمرها قريب لكن الذي لا يصح السكوت عنه هو هذا التحريف للأسماء العربية الذي ينشأ عن الاعتماد على اللغات الأجنبية في كل شيء، مع أن المفروض قصور تلك اللغات عن تأدية اللفظ العربي على وجهه. ولئن كنا نغتفر ذلك للصحفي المصري والمؤلف الشرقي لعذره ببعد الدار وعدم من يرجع إليهم للاستفسار، وإن نعد ذلك عيباً في حق المغربي الجزائري الذي المغرب بمرأى منه ومسمع.

ولنوقف القارئ على مثال من هذا التحريف الذي تغيرت به معالم ثلاث كلمات في عبارة واحدة وهي قول المؤلف عن المترجم أن له بحثين وصف بهما نسختين مخطوطتين موضوعهما الكلام على أشراف (تمسلوهت) وإحدى النسختين تأليف أحمد بن أبي القاسم بن محمد الشعبي (الحروي) التادلي واسم مؤلفه هذا حياة أبي يعزى والأخرى مجهولة الاسم والواضع" وقد علق على لفظة تمسلوهت بهذه الكلمة "قرب (مازقان) بالمغرب الأقصى" وصواب هذه الكلمات كما لا يخفى: تمصلوحت. الهروي، الجديدة، فأي نسبة بينها وبين التحريف؟

ثم إن اللوم في هذا ونحوه راجع في الحقيقة إلينا لأنا أهملنا ماضينا وحاضرنا فبقي الباحثون يتخبطون في عماية من أمورنا. وإلا فقل لي بربك أين هي هذه المباحث المغربية المكتوبة بالأقلام المغربية التي تجلو الرين وتكشف الغين؟...

البدائع

في الخزانة المغربية كنوز مغمورة، وثروات مذخورة، لو قيض لها من ينشرها للوجود ويبعثها من العدم لتكون بيننا في أمد قريب جداً وسط ثقافي حي ليس إلا به نهضة هذا الشعب من كبوته ويقظته من سباته، فإن في إحياء تلك الآثار النفيسة والأعلاق الثمينة ما يروج لسوق المعرفة والأدب حتى ليكسب القارئ العادي في صفقة واحدة بما ينتقل إليه من ذلك التراث العظيم ملكة القارئ المفكر، ونربح في وقت واحد القارئ الناقد والقارئ المنتج معاً.

وهكذا تقوم الحركة الفكرية على قدم وساق بباعث قومي وداخلي لا أجنبي ولا خارجي. ولن ينفخ روح الهمة والنشاط في المجتمع كصوت الأجداد المنبعث من ثنايا الماضي مدوياً مجلجلاً:

إن هـذه أعمالنـا لأجلكـم فمـاذا عملـتم لمـن بعـدكم؟

وفي التاريخ المغربي مواقف مليئة بالعظمة والجلال، وشخصيات فريدة تزهو على أعظم الأبطال، لو أتيح لها أن تعرض على الجمهور في المظهر اللائق بها وتجلى للعموم على منصة التقدير لكانت لنا من المثل العليا التي تهيب بالنفوس إلى تعشق الفضل والكمال، فتنير في الفئام الكثيرة إلى احتذائها والنسج على منوالها. وبذلك قد نغني من فقر الرجولة الذي قضى على كياننا

السياسي والأدبي ونضعضع معه مركزنا في العالم كأمة ذات مجد وسلطان.

ودون هذا وذاك فإنه لن يقطع ألسنة الأفاكين ويكم أفواه المتقولين الذين ينكرون على المغرب والمغاربة أي فضل في العلم والأدب ويغمطون ما قدموه من خدمات جليلة للثقافة العربية في مختلف العصور، كإبراز تلك الآثار القيمة للعيان وتقديمها من مظاهر الاعتناء والاحتفال إلى كل ناطق بالضاد فيشهد منها المعترف والمتعجرف مثال أسراب الحمام المحلقة بكل جو الطائرة كل مطار الزاجلة المرددة في نغمتها الحلوة الشجية:

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

أمامي الآن الحلقة الأولى من سلسلة البحوث التي ينوي إصدارها باسم (البدائع) عن الشخصيات المغربية الكبيرة الأديب النّابه السيد عبد الوهاب ابن منصور، من خيرة شباب فاس العاملين المجدين وموضوعها الأديب الموهوب ابن الطيب العلمي. وإنها لبحث مشرف لا نخجل من أن نقدمه إلى أي كان كإحدى نتائج العبقرية المغربية في الماضي والحاضر فلقد وفق فيه صاحبه إلى كثير من السداد وجلى لقرائه جلية صاحب الأنيس المطرب على ما يحيط بتاريخه من غموض وإبهام.

أنا الآن مطمئن بما أراه من سريان روح الحفاظ والغيرة في نفوس شبابنا المخلص أن سوف لا تبقى أعمال أولائك الأجداد

مغمورة يخيم عليها النسيان وأن جهود العاملين منا لن تضيع بعد اليوم بين عوامل الإهمال وسوء التقدير فليبرز إلى الميدان كل من يأنس في نفسه الأهلية للمباراة فليس يخاف أن يذهب انتصاره سدى وأن لا يصفق له أحد من المشاهدين.

ليس هناك شيء مهم أنتقده على ابن منصور، وإنما أنصحه بحكم تجاربي في هذا الشأن أن يجعل خطته عدم الغلو في تقدير الأشخاص والأشياء وأن لا يذهب مرخى العنان مع المذاهب والآراء وأن يزن أقواله بميزان الحكمة والأدب وأن يرعى الحرم ويتجنّب التهم ويتثبت في النقل كثيراً، أعني أن لا يحيد في هذا كله عن الخطة التي سار عليها في بحثه العتيد ليضمن لإثارة الخلود ويحصل على الثقة المرغوب فيها ولا يكون من الذين ينطبق عليهم قول الله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ [الرعد: 17].

أسفي وما إليه

تأليف العلامة المرحوم محمد العبدي الكانوني

ما علمت بوفاة هذا الفاضل حتى جاءتني رسالتكم منبئة بما عزمتم عليه من إقامة حفلة لتأبينه. وأنا إلى الآن أجهل تاريخ وفاته وظروفها كما أجهل طبعاً تاريخ حياته وأطوارها، ولم أستطع أن أعثر على صورة له أستوحي منها بعض المعاني والأفكار عن شخصيته وأخلاقه. فكأننا لا زلنا نعيش في القرون الوسطى حيث كان السفر في القطر الواحد من بلدة إلى بلدة يستغرق عشرات الأيام، ولم تكن هناك جرائد ولا مجلات أدبية تعنى بأخبار رجال العلم والأدب وتعرفهم للناس ولا كانت الفتوغرافية قد عرفت بعد فأنت تسمع بالشخص ولا تستطيع أن تراه إلا إذا رحلت إليه أو رحل إليك. وهكذا لا نزال ينطبق علينا القول بأنا أمة تهمل نبغاءها في حياتهم وتوسدهم تراب النسيان بعد وفاتهم، فإلى الله المشتكى من هذه الحال!

فبينما بعض الجرائد لا تتورع أن تترجم حتى لماسحي الأحذية وحمالي الرصيف إذا جرائدنا في غفلة حتى عن أهل العلم والأدب على قلتهم وندرتهم في هذا القطر العزيز. ولكن: لعل لها عذراً وأنت تلومها.

إرجع إلى كتابه أسفي وما إليه اقرأه واستوعيه، فإذا هو صورة جانبيه تنبئ في جلاء ووضوح عن المهم من أطوار حياة المؤلف

ذلك الطور الذي لبس فيه حلة العالمية وأتى يحمل إنتاجه في يديه كدليل على استحقاقه لتلك الحلة، فما هو مقدار انطباق هذا الوصف عليه؟ وما هي قيمة ذلك الإنتاج الأدبية؟

أما المؤلف فإنه يبدو في تضاعيف كلامه ويطل من خلال قوله مؤرخاً ثبتاً وناقداً رفيقاً ومصلحاً إسلامياً غيوراً يدل على ذلك موقفه من مسألة النسب البربري ومحاجته الحسنى لابن حزم وابن خلدون فيه ولياقوت في تجنيه على البربر ووصفه إياهم بما لا يثبت من الصفات الذميمة وغير ذلك من مواقفه.

ومما يسر المخلص للبحث والحقيقة أن المؤلف ليس بسبيل من أولائك المؤلفين المغرورين الذين يكون همهم أن يفرضوا شخصيتهم الثقيلة على القارئ فلا يفتأون يعلون عن أنفسهم وأمجادهم بالحق وبالباطل وبمناسبة وبدونها ويهاجمون الأغيار كذلك إن تصريحاً أو تلويحاً ولا تجد لهم موقفاً واحداً محموداً في الدفاع عن حقيقة أو الإنكار لباطل إلا أن يكون ذلك مما يتقربون به لفلان أو يحظون به عند علان من ذوي الجاه والنفوذ فما أحرى تلك المؤلفات المسمومة بنبذ التاريخ لها وهجر الأجيال إياها وكذلك سيكون.

وأسلوب المؤلف وسط بين الأساليب العالية والمبتذلة وإن كان لا يخلو من أغلاط نحوية في بعض الأحيان وبعبارة أخرى فهو أقرب إلى أساليب الصحافة الإخبارية التي لا تعنى كثيراً بتجويد العبارات وصقل الكلمات.

ومن ثم كان تنزله لذكر بعض الأشياء التافهة التي لا تعيرها الكتب العلمية التفاتاً كقوله في ص 106 بعد ذكر تأسيس جلالة المرحوم مولاي يوسف للمستشفى الأهلي بآسفي: "كما يوجد أطباء آخرون بالحاضرة ومنهم من هو مخصوص بالبوادي والأسواق" في أمثال كثيرة لهذه الجزئية.

وأما الكتاب فهو في نفسه طرفة تاريخية تضاف إلى محتويات الخزانة المغربية وتزيد في ثروتها وتعين على كتابة تاريخ المغرب المنتظر. ويظهر أن هذا السفر المطبوع منه هو القسم الأول الذي جعله المؤلف (في تاريخ آسفي التأسيسي وأطواره قبل الإسلام وبعده وأسواره ومحارسه ومساجده ورباطاته ومستشفياته وآثاره الخيرية وبناءاته القديمة وبيوتات أهله وأحوالهم العلمية والمدارس والمكاتب والحالة الأخلاقية والاقتصادية وغير ذلك).

ويبقى القسم الثاني الذي جعله (في تاريخه السياسي وما إليه من الحوادث) والثالث الذي جعله (في تاريخ حياة رجاله من أهل العلم والصلاح والسياسة وغيرهم من ذوي الحيثيات النابغين فيه أو حوله والداخلين إليه من غير أهله. يضم هذا القسم نحو 700 ترجمة فأكثر).

والمظنون، إن كان وضع هذين القسمين بالفعل، أنهما حافلان بالفوائد التاريخية والأدبية كسلفهما أو أكثر، فإذا هيأ الله لهما من أهل الغيرة وذوي الهمة من يخرجهما إلى الناس بالطبع فسيكون كتاب آسفي وما إليه مرجعاً مهماً من مراجع التاريخ المغربي العام يعتمد عليه الأدباء والمؤرخون والساسة لغزارة مادته وعظم فائدته.

فهرس المحتويات